

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مولود معمري تيزي وزو

كلية الآداب واللغات

قسم الأدب العربي

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

تخصص: لغة وأدب عربي

فرع : نقد وبلاغة

إعداد الطالب

مراد حاج محند

الموضوع

السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د: صلاح عبد القادر أستاذ التعليم العالي جامعة تيزي وزو.. رئيسا.

أ.د: مصطفى درواش أستاذ التعليم العالي جامعة تيزي وزو مشرفا ومقررا.

أ. د: لونس شعباني..... أستاذ محاضر صنف أ جامعة تيزي وزوممتحنا.

أ.د: مسعودة لعريط أستاذة محاضرة صنف ب جامعة تيزي وزوممتحنا.

تاريخ المناقشة: 2012/01/25

الإهداء

إلى :

❖ رُوحِي جَدِي وَ جَدَّتِي الطَاهِرَتَيْنِ أَسْكَنَهُمَا اللهُ تَعَالَى فَسِيحَ جَنَانِهِ.

❖ أُمِّي وَأَبِي .

❖ زَوْجَتِي وَ أَبْنَائِي: أُمَايَاس، لُونِيس وَمَاسِيلِيَا.

❖ إِخْوَانِي وَ زَوْجَاتِهِمْ، أَخَوَاتِي وَأَزْوَاجُهُنَّ وَ الْأَخْتِ الْمَدْلَلَةِ فَتِيحَةَ

❖ أَصْدِقَائِي: - مَرَاد أَرِيْس، لُخْضَر، اِسْمَاعِيل، مَرَاد، قَاسِي،

كَمَال، قَادِر، عَمْر، فَارُوق، رَزْقِي، نَاصِر، فَرِيد، مَاس، لُونَاس،

سَعِيد، عَلِي، مَقْرَان، عَمِي سَعِيد، حَنْد، طَاهِر، أَعْمَر...

❖ تَلَامِيذِي الْأَعْزَاء.

شكرو عرفان

أتقدم بالشكر الجزيل إلى:

- ü أستاذي المشرف أ.د مصطفى درواش على ما قدمه لي من توجيهات وتصحيحات.
- ü أستاذتي الفاضلة: أ.د آمنة بلعلى رمز الدقة والجد .
- ü أستاذي الفاضل: بوجمعة شتوان على توجيهاته القيمة وتواضعه الكبير.
- ü أستاذي الفاضل: السيد عباس عبدوش على الكتب التي قدمها لي.
- ü أستاذي الفاضل : د. صلاح عبد القادر على تشجيعه لنا طول مشوارنا الجامعي.
- ü أستاذي الفاضل: السيد شمس الدين شرقي على كل ما أفادنا به في الإعلام الآلي وعلى تواضعه الذي يزيد شموخا واحتراما وتقديرا.
- ü الأستاذة لوناسي سامية (سامية داود) على مساعدتها لي بعدة مراجع.
- ü إلى جميع أساتذة المعهد وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور صالح بلعيد، الدكتور يحياتن، الدكتور عمر بلخير ،الأستاذة حمو الحاج، الأستاذ قيتارة، الأستاذ إقلولي كما أتقدم بالشكر إلى نعيمة من الإدارة وعمال المكتبة.
- ü زملائي دفعة 2009/2008 جميعا.
- ü زملائي: سمير بعوش، صالح المغرة، سوريا سلطان، سلوى بوزرورة وفاطمة زاوي.
- ü الصديقين نجيب من مسيلة وباديس من بسكرة وإلى الأستاذة سيدي سعيد.
- ü زملائي في العمل: من المدير إلى أبسط عامل وأخص بالذكر الخلية التربوية للغة العربية .
- ü إلى السيد: عبد الرحمان أحسن مديري الأسبق والسيد مولود خلفاتي مديري السابق على تشجيعهما لي على مواصلة الدراسة الجامعية.

مقدمة

نقرأ أحياناً نصوصاً لا نفهم منها إلا القليل بالرغم من استعانتنا بالمعاجم ومعرفتنا لقواعد اللغة نحوها وصرفها وأصواتها وتركيبها فلم يحدث لنا هذا ونحن ندرك معاني مفرداتها المعجمية ووظائفها اللغوية؟ لم يعسر إدراك دلالتها ؟

يبدو أنّ عنصراً في غاية الأهمية هو الذي ينقص، إنه السياق الذي ينقسم بدوره قسمين: السياق اللغوي أو المقالي والسياق غير اللغوي أو المقامي، يعتمد الشق الأول على اللغة في حد ذاتها ونظامها الداخلي كالصوت والمعجم والتركيب والبناء النحوي والبناء الصرفي ويتوكأ الشق الثاني على المشاركين في الخطاب كالمتكلم والسامع إضافة إلى علاقتهما وكل الظروف المحيطة بالخطاب ونوع الخطاب .

أما سبب اختياري هذا الموضوع فهو قناعتي بأن السياق متجذر في تراثنا العربي وليس الغرب هو الذي عرفنا به بيد أنّ هؤلاء الغربيين قد نظموا في إطار نظرية متكاملة، ولم يتمكن نقادنا التراثيون من لمة في نظرية عربية أصيلة بإمكان أن تبرر العملية النقدية بموضوعية وقناعة وبالمقابل فإن جهود هؤلاء ملفتة للانتباه وبحاجة إلى إظهار وتوكيد.

أما العنوان فتمت صياغته « **السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية** » نظراً لتمحور الموضوع حول الدور الذي يلعبه السياق في توجيه النقد إلى استنباط الأحكام النقدية أو اعتماد النقد على السياق في إصدار أحكامهم النقدية التراثية سواء ما كان بناء على السياق اللغوي أي الداخلي أو ما كان بناء على السياق غير اللغوي أي ما هو خارج اللغة. ومن أجل الإلمام بالموضوع، اتبعت خطة تبدو لي مناسبة بحيث قسمت البحث فصلين جاء الفصل الأول بثلاثة مباحث وخصصت أربعة مباحث للفصل الثاني فكان البحث كما يلي:

الفصل الأول: السياق عند المحدثين ركزت فيه على البعد الاصطلاحي والمفهومي للسياق وكيف

بدأت العناية به في مباحث النقاد الغربيين والعربيين الحديثين.

الفصل الثاني: وهو تطبيقي تأسس على رصد السياق وحضوره ودوره في التراث النقدي العربي

في ضوء قراءات المتخصصين في مادين معرفية مختلفة للنصوص التي يبرز فيها السياق.

وانتهى البحث بخاتمة رصدت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

أما الفكرة التي انطلق منها البحث والتساؤلات التي ما فتئت تتزاحم في ذهن هي : هل يمكن القول بوجود عناصر النظرية السياقية في فكر التراثيين؟ وهل اعتمدوا عليها لاستيعاب الخطاب الأدبي ومن ثمة نقده؟ هل طُبق عن وعي لفهم الخطاب وتحليله ونقده؟ هذه التساؤلات أدت بنا إلى اعتماد منهج تكوثر ضمن التحام مقاربتين الوصف والتحليل .

أما الوصف فنظرنا لما يحويه البحث من معلومات لغوية علمية وجب عليّ رصدها من الكتب كما هي وجاءت في غالبها في الفصل الأول، أما التحليل فلأن الفصل الثاني تطبيقي، فبات لزاما عليّ اختيار بعض النماذج الشعرية من تراثنا عبر مصادر مختلفة وتحليلها بما يتناسب و السياق كموضوع إشكالي.

ركزت في هذا البحث على مصادر تراثية ومراجع حديثة، منها (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر و(البيان والتبيين) للجاحظ، كما توكلت على مراجع حديثة أهمها (دلالة السياق) لردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي و(السياق بين القدماء والمحدثين) لعبد النعيم خليل و(السياق النص و الشعري من البنية إلى القراءة) لعلي أيت أشان.

أما الصعوبات التي واجهتني أثناء انجاز هذا البحث، فهي كثيرة أهمها نقص المراجع المتعلقة بالموضوع في مكتبة الجامعة، وفي مكتبات تيزي وزو، بحيث انتقلت مرارا إلى ولايتي سطيف ومسيلة لاقتناء مراجع عدة لا سيما من مكتبة القدس بسطيف.

ومن الصعوبات أيضا ما اتسم به موضوع البحث من السعة والعمق والتفاصيل يعسر جدا على أي باحث مبتدئ أن يحصره في بعض النقاط الأساسية وهذا ما حاولت أن أفعله في عملي هذا، علما أن لكل شيء إذا ما تم نقصانا.

لا يفوتني أن أكرر شكري لأستاذي ومشرفي السيد مصطفى درواش على توجيهاته القيمة وتصحيحه عملي في وقت قياسي، كما أخص بالذكر أيضا في هذا المقام الأستاذة آمنة بلعلی على بعثها فينا روح الجد كعادتها و الأستاذ بوجمعة شتوان على زرعه الأمل فينا في الأوقات الحرجة دون أن أنسى الأستاذ سعيد شيبان على ما قدمه لي من كتب إلكترونية وورقية.

الطالب : مراد حاج محند

الفصل الأول

السياق لغة واصطلاحاً/ السياق ومصطلحاته

السياق عند الغربيين

السياق بمنظور النقاد العرب المحدثين

السياق لغة واصطلاحاً/ السياق ومصطلحاته

للبحث عن كنه مصطلح السياق لابد من العودة إلى المعاجم لاسيما لسان العرب لابن منظور

السياق لغة: يقول ابن منظور في مادة "سوق" السوق معروف وساق الإبل و غيرها يسوقها سوقا و سياقاً و هو سائق سواق و قد انساقت و تساوقت الإبل تساقاً إذا تتابعت و كذلك تقاودت فهي متقاودة و متساوقة.¹ ذهب "ابن فارس" « إلى أن السين و الواو و القاف أصل واحد و هو حدو الشيء يقال ساقه يسوقه سوقاً و السيقة: ما استيق من الدواب و يقال: سقت إلى امرأتي صداقها و أسقته و السوق مشتقة من هذا لما يساق إليها من كل شيء و الجمع أسواق، و الساق للإنسان و غيره و الجمع سوق و إنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها ² ».

و في حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعزاً ما تساق، أي ما تتابع و المساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضها.

و ساق إليها الصداق و المهر سياقاً و أساقه، إن كان دراهم أو دنائير لأن أصل الصداق عند العرب الإبل و هي تساق و السياق: المهر

قال الزمخشري، و من المجاز: هو يسوق الحديث أحسن سياق و إليك سياق الحديث، و هذا الكلام مساقه إلى كذا و جئتكم بالحديث على سوقه أي سرده³ و يقصد بالسرد التوالي و التتابع قال الله تعالى: "وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ"⁴

قيل في التفسير: سائق يسوقها إلى محشرها و شهيد يشهد عليها بعملها و أنشد ثعلب.

لولا قريش هلكت معد و استاق مال الأضعف الأشد.

و قال شاعر

ما الناس في شيء من الدهر والمنى وما الناس إلا سيقات المقادر⁵

¹ - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، م10، دار صادر، ط1، بيروت 1990، ص166 .

² - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، م4، دار الجيل، ط1، بيروت 1991، ص117.

³ - الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار صادر، ط1، بيروت 1992، ص314.

⁴ - سورة ق، الآية 21.

⁵ - الزمخشري، أساس البلاغة، ص314.

و سوقها كساقها قال امرؤ القيس:

لنا غنم نسوقها غزار
كأن قرون جلثها العصي¹¹.

و السيقة ما اختلس من الشيء فساقه ومنه قولهم: أنما ابن آدم سيقة يسوقه الله حيث شاء و قيل السيقة التي تساق سوقا.

يقال أيضا: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة : أي بعضهم على أثر بعض ليس بينهم جارية (أنثى)، و ولد لفلان ثلاثة أولاد ساقا على ساق أي واحد في أثر واحد، و بنى القوم بيوتهم على ساق واحدة أي أنهم بنوها على نموذج موحد متتابعة في رقعة واحدة⁽²⁾

ورد أيضا في لسان العرب رأيت فلانا بالسوق أي بالموت، يساق سوقا إن نفسه لتساق و في الحديث : دخل سعيد على عثمان و هو في السوق أي في النزع كأن روحه تساق لتخرج من بدنه و يقول أيضا في معنى السوق "إذا جاءت سويقة أي تجارة و هي تصغير السوق، سميت بها لأن التجارة تجلب إليها و تساق المبيعات نحوها، و يقال أيضا سوق القتال و الحرب و سوقته حومته.

و في جمهرة اللغة لابن دريد في مادة "سقو" » السوق مصدر سقت البعير و غيره أسوقه سوقا و السوق غلظ الساقين و رجل أسوق و امرأة سوقاء و السوق معروفة تؤنث و تذكر و أصل اشتقاقها من سوق الناس إليها بضائعهم و سويقة موضع لا تدخلها "الألف و اللام" وجو سويقة موضع² » حيث قال الفرزدق.

ألم تر أنني يوم جو سويقة

بكيت فنادني هنيذة ماليا⁴

يقال أيضا يسوق نفسه و يفيظ نفسه و قد فاظت نفسه و أفاظه الله نفسه و يقال فلان في السياق أي في النزع و قال الليث السوق موضع البياعات و سوق الحرب، حومة القتال و الإساقعة: سير الركاب للسروج. يقال أيضا السويقة بمنزلة الرعية التي يسوقها الملك وسموا سوقه لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم. يقول الأصمعي: السيق من السحاب ما طرته الريح، كان فيه ماء أو لم يكن .

1 - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية ، 2007، ص21.

2 - ابن منظور، لسان العرب، مادة "سوق"

3 - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، م2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 2005، ص200.

4 - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين ، ص24.

و جاء في القرآن الكريم "إلى ربك يومئذ المساق" (سورة القيامة، الآية: 30) أي السوق.

وردت مادة (ساق) في المعجم الوسيط بحيث يقال: « ساق الله إليك خيرا و نحوه بعثه إليه و أرسله، و ساق الحديث سرده و سلسله، و إليك يساق الحديث يوجه، ساق المهر إلى المرأة : أرسله و حمله إليها ساوقه: تابعه، سايره و جاراه، و انساق اتبع غيره و انقادَ تساوقت الماشية و نحوها، تتابعت و تزاممت في السير ¹».

و قيل السويق طعام يتخذ من مدقوق الحنطة و الشعير سمي بذلك لانسياقه في الحلق من غير مضغ²، و سياق الكلام سرده و أسلوبه الذي يجري عليه هو في السياق:الاحتضار.و في دائرة معارف القرن العشرين: ساق الحصان يسوقه سوقا و سياقة حثه على السير من خلفه و تسوق القوم: باعوا واشتروا.

و سياق الكلام: أسلوبه، جاءت الكلمة في سياق الكلام : في ضمنه و الساقية: مؤخر الجيش و السويق: الخمر و الناعم من دقيق الخمر و الشعير

ورد السياق في المعجم الفلسفي بالفرنسية: *contexte*، بمعنى سياق الكلام أي أسلوبه و مجراه، تقول : وقعت هذه العبارة في سياق الكلام أي جاءت متفقة مع مجمل النص، و سياق الحوادث *Processus* مجراها و تسلسلها و ارتباط بعضها ببعض و إذا جاء الحادث متفقا مع الظروف المحيطة به كان واقعا في سياقها³ .

أ ما في القواميس الغربية فإن قاموس الجيب « *La rousse de poche* » قد حدد لفظة السياق بوصفها كلمة قريبة من المعنى الحديث للمصطلح.

السياق هو ما يصاحب، يسبق أو يتبع نصا للتوضيح ، بينما قاموس روبير الصغير « *Le Petit Rebert* » فيعرفه أنه مجموع نص يحيط بعنصر لغوي (كلمة، جملة، جزء من ملفوظ، و يتعلق بمعناها

1 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج1، مطابع الأوقشت، شركة الإعلانات الشرقية، ط3، القاهرة، 1985 ، ص482.

2 - فهد بن شتوى بن عبد المعين شتوي، دلالة السياق وآثارها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى، مكة، 2005، ص 12 .

3 - ينظر: عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين ، ص26.

و قيمتها كما يعرف أيضا على أساس أنه مجموع الظروف التي في إطارها يندرج فعل ما فهناك السياق السيכולوجي للتصرف و السياق السياسي، العائلي¹).

ورد في قاموس Petit Larousse لفظ contexte أي السياق : و هو اسم لاتيني مذكر ورد Contexère و معناه مجموع النص الذي يسبق أو يلي جملة أو مجموعة من كلمات أو كلمة.²

أما « ميكرو روبير » « Micro Robert » فيشرح السياق على أنه مجموع النص الذي يحيط بعنصر لغوي من اجل فهم أفضل³.

يميز معجم اللسانيات "لجورج مونا" بين السياق اللغوي و سياق الحال، الذي يعني التجربة غير اللغوية المعيشة، قد يعد السياق مثل التعبير بوسائل لغوية محضة لما هو أساس في حالة ما لتكوين رسالة، فمثلا إذا أشرنا إلى قلم فوق الطاولة و قلنا لأحد: قدمه لي، إذا جردنا الحالة من سياقها نقول: قدم لي القلم الذي فوق الطاولة، فإن السياق يعينُ المعنى الذي تمنحه الكلمات بتحيين بعض الدوال و حذف البعض الآخر و هذا ما يجنب اللبس حتى في حالات المشترك اللفظي و يمكن للكلمة أن تلعب دور السياق كما لعلامات الترقيم و النبر و التنعيم و الأداء قيمة سياقية. أما (معجم اللسانيات وعلوم اللغة) فقد ورد فيه السياق⁴ على النحو التالي: نسمي السياق اللغوي مجموع نص الذي فيه تتحدد وحدة معينة، أي العناصر التي تسبق أو تلي هذه الوحدة و محيطها⁵ و نسمي سياق الحال مجموع الظروف الطبيعية والاجتماعية و الثقافية التي يتموقع فيها ملفوظ أو خطاب، و هو أيضا معطيات مشتركة بين المخاطب و المتلقي حول الحالة الثقافية و النفسية لتجاربهما ولمعارفهما وجاء في قاموس السيميائيات " لغريماس" و " كورتيس" أن السياق هو مجموع النصوص التي تسبق أو تواكب وحدة تركيبية معينة و تتعلق بها الدلالة، حيث يمكن له أن يكون صريحا أو لسانيا، أو ضمنيا و هنا يعد سياقاً خارج لساني أو مقامي.

¹ - علي ايت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، ط1، مؤسسة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2000، ص31.

² - Petit Larousse en couleurs, édition Paris 1984, P225

³ - Micro robert, imprimé en France, par brodard graphique, ED Paris, 1982,P220

⁴ - Georges Mounin, dictionnaire de la linguistique, ED : quadrige, Paris2004, pp83, 84.

⁵ - Dictionnaire de la linguistique et des sciences du l'langage, ED Larousse,Paris1999, p116

ورد في القاموس الموسوعي لعلوم اللغة لكل من "ديكرو" و "تردوروف" مقام الخطاب، و هو مجموع الملابسات، التي في إطارها يتحدد فعل التلفظ سواء كان مكتوبا أو شفاهيا أي يجب أن يعنى بالمحيط المادي و الاجتماعي، الذي يأخذ فيه هذا الفعل مكان الصورة المتبادلة بين المتخاطبين، و يفضل (ديكرو) ربط مصطلح السياق بما هو لغوي محض، أي بالوحدات الصوتية و المعجمية التي تسبق أو تلحق الملفوظ خاصة.¹

وضع ياكسون السياق كعنصر من أهم العناصر التي تشكل النشاط اللغوي، و ماثله بالمرجع. إنه الوظيفة المرجعية للغة التي هي ضرورية في توضيح الإرسالية.

يؤكد "ديكرو" أن كثيرا من أفعال التلفظ لا يمكن تأويلها إذا كنا نعرف فقط الملفوظ المستعمل و نجهل كل شيء عن المقام، هذا المقام هو الذي يحدد مرجع التعابير المستعملة و يمنحنا الاختيار بين التأويلات المختلفة لملفوظ غامض.²

بينما يعرف جون دي بوا "قاموس اللسانيات" السياق على أنه الوحدات التي تسبق أو تلحق وحدة محددة.

إنه كذلك مجموع الشروط الاجتماعية، التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي و السلوك اللساني و غالبا ما تحدد بالسياق الاجتماعي لاستعمال اللغة أو ما يدعى بالمقام³. والمقام هو مجموع من المعطيات المشتركة بين المتكلم و المستمع في مقام ثقافي و نفسي للتجارب و معارف كل منهما⁴.

يستعمل لفظ السياق مقابلا للمصطلح الانجليزي "context" الذي يراد به: المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء كانت كلمة أو جملة في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية أما "هاليداي" « M HALLIDAY » يرى أن السياق هو النص الآخر أو النص المصاحب للنص الظاهر و هو بمثابة

¹- ينظر: علي أيت أوشن، النص والسياق الشعري، من البنية إلى القراءة، ص33.

²- ينظر: المرجع نفسه، ص33.

³- المرجع نفسه ، ص34.

⁴ - Dictionnaire da la linguistique, et des sciences du langage, Ed la rousse, Paris 1999, P116.

الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية¹. و غير بعيد عن هذا المعنى تقول بروس أنغام إن السياق يعني واحدا من اثنين:

1. السياق اللغوي : و هو ما يسبق الكلمة و ما يليها من كلمات أخرى.

2. السياق غير اللغوي: أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام لكن "ديجراد" (R de beaugrande) ميز بين مصطلحين و هما contexte و co-texte يتضمن الأول الدلالات الخارجية و انتاج النصوص و استقبالها بينما يكتفي الثاني بالمكونات القواعدية و النحوية و الدلالات الداخلية و صرف و أصوات و كأن به يسمى السياق اللغوي co-texte و السياق غير اللغوي contexte².

هناك من عبّر عن السياق بألفاظ مرادفة مثل: المقام، المقتضى، مقتضى الحال، التأليف... ومن هنا يتبين أنّ ثمة مصطلحات عديدة تفيد معنى السياق بنوعيه، منها ما يتعلق بالسياق اللغوي وهي أنواع:

النظم و سياق النظم: كثير من العلماء يوظفون مصطلح النظم و سياق النظم للدلالة على السياق اللغوي، قال عبد القاهر الجرجاني: ليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم³.

التأليف والتركيب والاستعمال: قد يستخدم العلماء لفظ التأليف أو التركيب أو الاستعمال للدلالة على السياق المقالي يقول "الشاطبي" في مؤلفه "الموافقات": القاعدة في الأصول العربية أن الأصل الاستعمالي إذا عارض الأصل القياسي كان الحكم للاستعمال، وقال أيضا إنّ العموم إنّما يعتبر بالاستعمال ووجوه الاستعمال كثيرة ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال⁴.

¹ - ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، جامعة أم القرى، ط1، مكة المكرمة، 1423 هـ، ص51.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص51.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، درا الكتاب العربي، ط1، بيروت 2005، ص336.

⁴ - نجم الدين قادر كريم الزكني، نظرية السياق، دراسة أصولية، دار الكتب العملية، ط1، بيروت، 2006، ص64، 65.

النسق ونسق الكلام: يوظف لفظ النسق أو نسق الكلام للتعبير عن السياق اللغوي لاسيما عند الأصوليين، يقول الشاطبي في الموافقات عن سورة "المؤمنون" غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوّة. نسق الكلام معناه عطف بعضه على بعض وترتيبه ومنه حروف النسق أي العطف.

السباق: والمراد به ما يسبق اللفظ ويستخدم في حالتين إمّا مستقلاً عن السياق أو اللّحاق، فيقال دلّ عليه السباق والسيّاق أو السباق واللّحاق، إمّا مقروناً بلفظ السياق و في هذه الحالة دلّ على سابق القول.¹ من المصطلحات ما يتعلق بالسياق غير اللغوي، وهي أنواع:

المقام والحال ومقتضى الحال: إنّ مقتضى الحال هو الأمر الخاص الذي يقتضيه الحال أو ما يدعو إليه الأمر الواقع، أي ما يستلزمه مقام الكلام و أحوال المخاطب من التكلم على وجه مخصوص ولن يطابق الحال إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين و اعتبار طبقاتهم في البلاغة و قوتهم في البيان و المنطق، فللسوقة كلام لا يصطلح غيره في موضعه و الغرض الذي يبنى له و لسراة القوم و الأمراء فن آخر لا يسد مسده سواء² ، ومعنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال أنّ الكلام الذي أورده المتكلم جزئي من جزئيات ذلك الكلام بمعنى آخر أن الحال إذا اقتضى التأكيد أكد الكلام وإن اقتضى الإطلاق عُرِي عن التأكيد³. ويسمى الحال « بالمقام وهو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة دون أخرى » أما المقتضى « ويسمى الاعتبار المناسب هو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة أو إلقاء الكلام على الصورة التي اقتضاها الحال »

البساط: ويعنى به الحالة التي خرج الكلام فيها ويورد مصطلح البساط بمعنى المقام⁴ .

السبب: يطلق الأصوليون والمفسرون وعلماء الحديث كلمة سبب بمعنى المقام ويعنون به واقعة النزول والورود وكذلك الأسباب الاجتماعية القولية والفعلية التي أحاطت بمجئ النص.⁵

¹ - نجم الدين قادر كريم الزنكي ، ص65.

² - أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني و البيان و البديع، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 2003، ص29

³ - نجم الدين قادر كريم الزنكي ، ص66.

⁴ - المرجع نفسه ، ص67.

⁵ - المرجع نفسه، ص68.

هناك مصطلحات أخرى مثل المساق¹، سياق النص، وسياق الموقف، ويُقصد بسياق النص الجانب اللغوي وبسياق الموقف السياق غير اللغوي، وبالرغم من كثرة المصطلحات التي تفيد أو تقترب من معنى السياق حسب الدرس اللغوي الحديث، إلا أن مصطلحي السياق والمقام هما الأكثر استعمالاً عند اللغويين المحدثين.

مما سبق يلاحظ ما يلي:

المعنى المشترك: لكلمة السياق في مختلف المعاجم هو التتابع والسير والمجارة والانقياد والملاءمة والنزع. المعنى الأصلي: مرتبط بالمعنى المجازي فكما تساق النوق والغنم في قطيع واحد، كذا تساق الكلمات في جمل، وهذا هو وجه الشبه بين السياق بمعناه الحسي والسياق بمعناه اللغوي.

راحت بعض المعاجم إلى شرح السياق بمعنى الأسلوب²

إن المعاجم الغربية شرحت السياق كمصطلح وعرفت معناه في اللسانيات، لا سيما المعاجم المتخصصة.

وإذا قالوا: سياق العبارة أو سياق الموضوع أو سياق الحديث، فهم يعنون به نظم الكلمة في الجملة. و لعل لسان العرب أكثر المعاجم تعمقا في معالجة مادة سوق بحيث برزت فيه عدة معان أهمها:

السرد والسلسلة والإيراد و مجيء الشيء على التتابع. تقول العرب "ساق الحديث إذا سرده وسلسله" ومنه قول الله تعالى "وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا"³: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا»⁴ وقوله تعالى: "ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا"⁵: أما مجيء الشيء على التتابع بمعنى الشيء إثر شيء آخر من غير فاصل تقول العرب تساق الشيطان إذا تسايروا وتقارنا. التقديم بمعنى تقديم شيء بين يدي الشيء تقول العرب ساق إلى امرأته الصداق، إذا قدمه من أجل النكاح ومنه سمي المهر سياقاً، لأن العادة جرت بتقديمه وبذله إلى المرأة قبل الدخول بها. النزع والانتزاع من الشيء صبرا وتدرجا لذا يقال لنزع الروح السياق. الملابس والمقاربة ومنه ما جاء في الأثر: "إذا تشهد الكافر وهو في السوق صلي عليه" وقيل سياق الموت: وقت حضور الأجل، كأن روحه تساق لتخرج من جسده⁶.

¹ - ردة الله بن ردة الله الطلحي، دلالة السياق، ص47.

² - ينظر: عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص28.

³ - سورة الزمر، الآية 71.

⁴ - سورة الزمر، الآية 73.

⁵ - سورة مريم، الآية 86.

⁶ - نجم الدين قادر كريم الزكني، ص34

السياق عند الغربيين:

من يتصل بالدرس اللغوي الغربي بعد أن يمر بالمعاجم الغربية يدرك أن اللغويين الغربيين قد عنوا بموضوع السياق عناية كبيرة وعرفوه كمصطلح و تناوله الكثير منهم من بينهم أولمان . يتحدث " أولمان" عن المصطلح *contexte* بقوله كلمة *contexte* قد استعملت حديثا في معان مختلفة منها النظم اللفظي لكلمة وموقعها من ذلك النظم لذا فالسياق ينبغي إضافة إلى اشتماله الجمل الحقيقية السابقة واللاحقة أن يتضمن القطعة كلها والكتاب كله وكل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات. كما أن للعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام دورا بالغا في هذا الشأن¹. وكلاهما ينطويان تحت سياق الثقافة²

إن أصغر عنصر لغوي هو الصوت المفرد، لكنه يبلغ في الكبر حد الجملة أو ما وراءها (النص) وبالتالي فإذا كان العنصر اللغوي موضع التحليل هو الوحدة الصوتية فتكون إذن أمام أقل حدود السياق الصوتي ويكون حد هذا السياق هو الكلمة أما إذا كان العنصر اللغوي المطلوب تحليله هو الكلمة فيتوسع حدود السياق قليلا فيتصل بما هو أكثر منها وهو الجملة، لأن الكلمة يتحدد معناها في إطار الجملة وكلما صعدنا في العنصر المطلوب تحليله توسع نطاق السياق أي ضاقت حدود الغموض كما يرى أولمان³ بعبارة أخرى يمكن القول إنّ العنصر المتخذ موضوعا للتحليل هو الذي يحدد حجم السياق وتنوعه، أما الأسلوبيون فهم أكثر دقة في هذا الموضوع بحيث يقسمون السياق نوعين :

السياق الصغير *Micro contexte* : يقصد به الجوار المباشر للفظ قبله أو بعده

السياق الكبير *Macro contexte* : يقصد به أحيانا ما هو أكبر من الجوار المباشر للفظ كالجملة أو الفقرة أو الخطاب ويتمثل أيضا في جملة المعطيات التي تحضر القارئ وهو يتلقى النص بموجب مخزونه الثقافي و الاجتماعي⁴.

¹ - ردة الله بن ردة ، دلالة السياق، ص52

² - المرجع نفسه، ص53.

³ - المرجع نفسه، ص53.

⁴ - المرجع نفسه ، ص54.

أما هانس HANSSON فقد صنف مختلف الاتجاهات التداولية اعتماداً على تشغيلها لمصطلح السياق إلى ثلاث درجات.

- **تداولية الدرجة الأولى** وتتمثل في دراسة الرموز الإشارية Les symboles indexicaux وتطبيقاً يتمثل السياق هنا في العناية بالمتخاطبين ومحددات المكان والزمان
- **تداولية الدرجة الثانية** تركز على طريقة تعبير القضايا وعلاقتها بالجملة المتلفظة والسياق هنا يمتد إلى ما يحدث به المتخاطبون.

- **تداولية الدرجة الثالثة** تتمثل في نظرية أفعال الكلام¹

أما "أرمينكو" فتري أن السياق يمتلك طابعاً تداولياً إلا أن الصعوبة فيه تكمن في عدم معرفتنا أين يبدأ وأين ينتهي. وللسياق أربعة أنماط

السياق الظرفي والفعلية والوجودي والمرجعي ويحدد هوية المتخاطبين ومحيطهم المادي

والمكان والزمان اللذين يتم فيهما الغرض

السياق المقامي أو التداولي يتميز هذا النوع بالاعتراف به اجتماعياً كمتضمن لغاية أو غايات

وعلى معنى ملازم تتقاسمه الشخصيات المنتمية إلى الثقافة نفسها.

السياق التفاعلي ويقصد به تسلسل أفعال اللغة في مقطع متداخل الخطابات، إذ يتخذ المتخاطبون

أدواراً تداولية محضة: هي الاقتراح، الاعتراض

السياق الاقتضائي يتكون من كل ما يحدث به المتخاطبون من الاقتضاءات أي من اعتقادات

وانتظارات ومقاصد تكون مشتركة بين المخاطبين

أما "ستالناكر وجاك" فإنهما يريان أن التداولية دراسة خضوع القضايا للسياق، لأن السياق الذي

تخضع له الجمل هو الذي يستعمل في تحليل أفعال اللغة، الذي يعبر من خلاله عن قواعد منطق الحوار.

¹ - أيت أوشان ص59، 60، 61.

ويغير كل فعل كلامي لغة السياق لأن السياق ببساطة هو أثر أفعال اللغة السابقة وسبب أفعال اللغة اللاحقة.¹

أخذ السياق مساراً عميقاً مع البحث التداولي بمختلف اتجاهاته نتيجة لتطور علم الدلالة الذي أصبح يعنى بالوحدات اللغوية وارتباطها بالزمن كما يركز على العلاقات بين المدلولات التي تشكل معنى الخطاب من هنا فإن السياق أداة جد هامة تساعد على الحديث عن الأشياء بدقة تكاد تكون متناهية بحيث يمكننا من دراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والكلامي في استعمال اللغة، فلا يمكن الاستغناء عنه أو التفريط فيه لأنه ببساطة سيؤدي بنا حتماً إلى توتر قناة التواصل، لاسيما إذا علمنا أن المعنى الحرفي للملفوظات لا يؤدي إلى المقصود في غياب الملامح النطقية كالتنغيم و النبر وغير نطقية كحركات الرأس و اليد و ملامح الوجه...

أما أوستن في بحثه عن طبيعة اللغة فإنه وقف على ما يمكن تحقيقه بمجرد الكلام لذا قسم الملفوظات قسمين: تقريرية وإنجازية.²

أما التقريرية: Constative، فهي وصف الحوادث وحالات الأشياء نحو: الجو جميل فإذا كان الواقع كما وصف، يتضح صدق القائل أو يظهر كذبه مباشرة إن كان الجو غير ذلك، لكن كثيراً ما يتلفظ بهذه الجملة ولا يمكن تحديد صدق أو كذب هذا القول لأننا أحياناً عندما نحس أن الجو جميل فإن غيرنا يبدو له غير جميل والعكس صحيح و في حقيقة الأمر ما الجو الجميل؟

يستعمل هذا القول ليس حتماً للوصف أو التقرير إنما فقط تمهيداً لبداية حوار بين أفراد غير متعارفين من قبل.

أما الملفوظات الإنجازية Enoncées Performatives : فهي التي لا تحمل الصدق أو الكذب بل تتجزأ الأشياء من خلالها كالوعد والأمر والوعيد، من هنا يتبين الفرق بين الملفوظات التقريرية والإنجازية فإذا كانت الأولى تخضع فيه اللغة للواقع بحيث تحاول أن تمثله، فإن الثانية، الواقع هو الذي يخضع للغة التي تحاول أن تغيره.

¹ - علي أيت أوشان ، ص 62.

² - نصيرة غماري، نظرية أفعال الكلام عند أوستن، مقالة في مجلة اللغة والأدب ع 17 جامعة الجزائر 2006، ص 81.

فقولنا مثلاً: أمرك بإغلاق الباب يفترض حديث بين اثنين والباب مفتوح فيحاول أن يغير الملفوظ هذا المفترض بإغلاق الباب¹.

والحديث عن الواقع هو الحديث عن المرجعية، لأن الملفوظات التقريرية تحيل على الواقع، بينما الملفوظات الإنجازية تحيل على نفسها، لأنها تحيل على واقع هي التي تكونه. يرى "أوستين" أنه يمكن التمييز بين هذه الملفوظات، وبالا اعتماد على النحو فالملفوظ الإنجازي يستعين عادة بالضمير المتكلم المفرد ويوظف غالباً الفعل المضارع المبني للمعلوم مثل أعد، أمر، أطلب، أرجو، لكن هناك عبارات تلعب الدور نفسه دون الاعتماد على هذه الصيغ المذكورة سالفاً، فحديث الملوك والرؤساء لا يوظف فيه الضمير المتكلم المفرد بل يستعمل عادة الضمير المتكلم الدال على الجمع « نحن » كما أن الفعل المضارع الموظف في الملفوظات الإنجازية يمكن الاستغناء عنه وتعويضه بمصدر أو بمشتق كاسم المفعول في قولنا « المرجو من المسافرين الابتعاد عن السكة » هذه الجملة ملفوظ إنجازي إلا أنها بعيدة عن الشكل الذي تصوره أوستين الذي انتهى به الأمر إلى الانتباه إلى أن هناك إنجازات عديدة لا أثر لها للفعل بكل أزمنته وضمائره فقسمها قسمين².

الفعل الإنجازي الأولي: Performatif primaire : مثل أغلق الباب، فهذا النوع يمكن دعمه وتفسيره بواسطة ملفوظ إنجازي آخر أمرك بإغلاق الباب ، هنا نلاحظ الفرق الكائن بين هذين الفعلين فإذا كان الأول يعبر عن الأمر بإغلاق الباب فإن الثاني يقدم نفسه بوضوح وإلحاح كفعل أمر كما أنه يضيف دلالة نوعية ونشعر به و بوجود إصرار وكأن المستمع لا يملك حلاً آخر أو خياراً.

وهذا النوع يسمى: الملفوظ الإنجازي الصريح Performatif explicite لكن هذه المعايير لا تصمد كثيراً أمام تشعب معاني اللغة وتوجد ملفوظات يعسر تحديد نوعها فهي إنجازية أولية أم إنجازية صريحة أو مفسرة ومثال ذلك القول: سأعود حالاً قد يكون وعداً أو تخميناً أو إنذاراً، فالسياق الملفوظي هو الكفيل بإبعاد الغموض عن هذا القول، وهذا ما يجعل الإنسان يشعر باللبس في التمييز بين الملفوظات التقريرية والملفوظات، الإنجازية ولهذا طور أوستين نظريته إلى الملفوظات فتوصل إلى ارتياد مجال آخر هو مجال أفعال الكلام فتمكن من تقسيمها ثلاثة أقسام :

¹ - ينظر: علي أيت أوشان ص64.

² - المرجع نفسه ص65، 66.

1. فعل التلفظ Acte locutoire وهو مجرد التلفظ بأصوات نطقية

وهو ثلاثة أنواع:

(أ) - الفعل الصوتي Acte phonétique وهو مجرد إنتاج أصوات.

(ب) - الفعل الانتباهي Acte phatique وهو إنتاج لكلمات يكون لها رصيد في المعجم تكون خاضعة لقواعد النحو والتركيب.

(ج) - الفعل الإحالي Acte rhétique وهو استعمال هذه الكلمات في معنى معين مع تحديد مراجعها على أساس أنّ الدلالة هي المعنى والمرجع، لكن للإشارة يصعب التمييز بين الفعل الصوتي والفعل الانتباهي نظرا لتداخلهما لأن الفعل الإحالي شديد الارتباط بالفعل الانتباهي فهو كارتباط الخطاب المباشر بالخطاب غير المباشر¹.

2. فعل الخطاب: Acte illocutoire وهو قول شيء معين أو أي كلام يفيد تقريراً، أو وعداً أو استفهاماً، وله عدة وظائف واستعمالات مختلفة، لأن فعل الخطاب ينجز بواسطة القول فمثلاً القول: هل سيكون الجو جميلاً غداً؟ قد يكون التعبير دالاً على شك أو قلق لكن قد يأخذ قيمة أخرى إذا كان موجهاً إلى مستمعين معينين، وهذا ما يسميه أوستين بالأفعال الخطابية .

يجعل إنجاز المتكلم لفعل خطابي بالاستفهام أو بالأمر لنفسه دوراً وللمستمع دوراً آخر فإذا استفهم المتكلم انتظر جواباً والمستمع يكون في موقف يحتمه على الرد أو الجواب لكن بشرط أن يفهم الخطاب. هذا الخطاب الذي يملك قوة خاصة ومحتوى قضائياً Contenu propositionnel والمقصود من هذا الأخير هو حالة الشيء الذي تصفه الجملة.

إن فعل الخطاب ينجز في الكلام وهو قابل للتفسير وذو طبيعة تواضعية وينقسم بحسب قيمته الخطابية خمسة أقسام، هي كالتالي:

(1) - قضائي verdictif لإصدار الأحكام.

(2) - مراسي Exercitif لإثبات سلطة أو تأثير.

¹ - علي أيت أوشان، ص 68.

(3)- وعدي Promissif لتقرير أخبار أو قصد.

(4)- سلوكي Comparatif لضبط المواقف.

(5)- عرضي Expositif تساعد في استمرار الحوار بتفسير الغموض¹.

3. فعل التأثير في الخطاب Acte perlocutoire هو الفعل الحاصل نتيجة لما يقال لأنه غالبا ما

يكون للتلفظ بكلام تأثير معين في سلوك الآخرين مثل: إقناعهم، إغضابهم أو إمتاعهم إن فعل التأثير في الخطاب يحتاج إلى مجموعة من الأفعال ولكي تحقق نجاحا وجب ربطها بمجموعة من الشروط، هي:

الشروط الأولية Conditions préliminaires هي التي تحدد وضعية المتكلم والتي تسمح له بفعل

خطابي ما وهذا التحديد يجعله أهلا لإصدار ملفوظه فمثلا: ملفوظ : افتتحت الجلسة يقتضي وضع اجتماعيا يسمح بهذه الصياغة اللغوية فلا يكون له معنى إلا إذا كان هذا الشخص رئيس محكمة مثلا².

الشروط الجدية Conditions de sincérité : يجب على المتكلم أن يكون صادقا في كل أقواله

وإلا يكون قد ارتكب إثما وفي المحكمة يكون قد شهد شهادة زور لأن الفعل الخطابي إن تجرد من الجدية يكون دائما فعلا كلاميا ناجحا ولو أن صاحبه قد كذب.

الشروط الأساسية Conditions essentielles : إن الشخص الذي ينجز فعلا ما يكون مرتبطا

بواسطة خطاب ملفوظه ببعض الأفكار والمقاصد وهو مسؤول عن صدق أو كذب ملفوظه وهذا

الالتزام مسألة سلوكية³.

لقد عرضنا ما عالجه أوستين من قضايا تتعلق بالملفوظ، وبالتالي بالمتكلم وبعبارة أوسع عني بكل

الشروط السياقية التي تتحكم في عملية التواصل لاسيما دراسة اللغة أثناء الاستعمال.

أما "فان دايك" VAN Dijk « فإنه يحدد النص الأدبي بناء على عدة تصورات أهمها أن الأدب

مجموعة من الممارسات النصية وأن النص الأدبي يجب أن يُعدّ في آن واحد نتاجاً لعملية الإنتاج وأساساً

¹ - علي أيت أوشان، ص71.

² - ينظر : المرجع نفسه ، ص71.

³ - ينظر: المرجع نفسه ، ص72.

لأفعال وعمليات التلقي والاستعمال داخل نظام التواصل والتفاعل وهذه العمليات التواصلية الأدبية تقع في عدة سياقات تداولية ومعرفية وسوسيوثقافية تحدد بدورها الممارسات النصية كما تتحدد هي بواسطتها.

إنّ السياقات الأدبية تتمفصل بحسب جماعة المشاركين وأدوارهم وبحسب المقامات والمؤسسات وأحيانا بحسب مجموعة من القيم والأحكام المحددة أي الإيديولوجيا الأدبية. و يشير "فاندايك" إلى أن الأسلوب قد يكون مقصودا أو غير مقصود.

حيث يستعمل المتكلم في هذه الحالة تغيرات ذات وظيفة في سياق معين، يمكن أن يكون نفسيا بالدرجة الأولى لأن التعابير و علاقات الملفوظات بينها، كل ذلك تحكم فيه حالة المتكلم الذهنية، مواقفه و انفعالاته كما يمكن أن يكون التغيير الأسلوبي تعبيرا عن سياق اجتماعي، بدليل أن الحوار الدائر بين المتعارفين و غير المتعارفين يختلف فيه الأسلوب المستعمل و لا يكمن الاختلاف فقط على مستوى المفردات إنما أيضا على مستوى اللفظ و على مستوى العلاقات الترابطية و بنية النص، كما أن بعض التغيرات في الأسلوب تلعب دورا فاعلا و يضيف على النص بنية أخرى و من هذه التغيرات

الحذف Suppression

الإضافة / التكرار adjonction / répétition¹

المبادلة Permutation

الاستبدال substitution

مستويات السياق عند فاندايك: إن استعمال اللغة ليس هو إنجاز فعل مخصوص فقط، و إنما هو جزء كامل من التفاعل الاجتماعي لذا فهو يدرس اللغة في استعمالها بحيث أهتم بالسياق فقسمه مستويات عديدة، منها²:

(1) - السياق التداولي : le contexte pragmatique

حسب "فاندايك" فإنه ينبغي دراسة النصوص من حيث وظائفها أيضا، و من أجل ذلك بات من الضروري اعتماد السياق التداولي لتأويل النص كفعل كلامي أو كسلسلة من أفعال كلامية يقوم بها

¹ - علي أيت أوشان ، ص82.

² - ينظر: فان دايك، النص والسياق، تر، عبد القادر قنيني، إفريقيا شرق، الدار البيضاء، 2000، ص227.

الشخص حين يتلفظ بجملة أو بعدة جمل في سياق ملائم لها و فيما تتدخل التداولية لتحدد الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الفعل الكلامي، حتى يكون ملائماً لسياق معين.

يتألف السياق التداولي من جميع العوامل النفسية والاجتماعية، كالمعرفة التي يملكها مستعملو اللغة و رغباتهم و هواياتهم و مواقفهم و علاقتهم الاجتماعية.¹

(2) السياق الإدراكي: يرتكز هذا النوع من السياق أساساً على فهم النص بحيث يجب أن يستوعب مستعمل اللغة أولاً الكلمات و الجمل، و من ثم متتاليات الجمل و يمكن القول إن سياق الفهم يؤول إلى تحليل المعلومة المنقولة بواسطة بنية النص السطحية و تبسيطها لتصبح معلومة مفهومية لذا تتحول الجمل إلى قضايا و لا يمكن التوصل إلى فهم النص إلا بالاعتماد على المكتسبات المعرفية المخزونة في الذاكرة بإقامة روابط ضرورية بين جملة و أخرى و تحرير الذاكرة من جزء من مخزونها و تجديد معلوماتها، و ما يساعد على استيعاب النص أيضاً طريقة بناء المعلومات الكبرى وتنظيمها والتي ينبغي أن تكون مختصرة، لأن القارئ لا يتذكر النص كلمة كلمة، بل ولا حتى جملة جملة، لكن قد لا ينسى أهم الموضوعات، فهذه الأخيرة هي التي تثبت أكثر في الذاكرة.²

(3) - السياق النفسي الاجتماعي / Le contexte socio-Psychologique

المراد من هذا النوع هو مدى تأثير النصوص في مستعملي اللغة، فردياً أو جماعياً و من هنا بات الاهتمام بالعوامل الاجتماعية المساعدة لفهم النص أمراً مهماً علماً بأن "الوظيفة" هي التي تساعد على تكوين المعرفة و تغيير الآراء، لأنه إذا كان الإنسان لا حاجة له إلى معرفة ما فإنه لا ينميها و يفضل غالباً المعرفة و المواقف التي تتناسب مع ما اكتسب من قبل، كما يفضل أن تكون المعرفة و المواقف متفقة مع الآراء التفسيرية التي يكونها الفرد عن ذاته و عن علاقاته مع مجموعة معينة من الأفراد.

(4) - السياق الاجتماعي Le contexte social

إن الأفعال الكلامية أفعال اجتماعية تنتج في سياقات من التفاعل التواصلية فالنص يؤثر في المقام الاجتماعي و المقام الاجتماعي يؤثر في النص بواسطة الاستعداد الإدراكي للمستعمل، لأن هذا المستعمل

¹ - علي أيت أوشان، ص 82.

² - المرجع نفسه، ص 86.

حين يقوم بتشريح الواقع الاجتماعي إنما يمارس ضغطاً في توجيه الإنتاج النصي و فهم النص من خلال آرائه، موافقة ورغباته و مصالحه و لتحقيق غرضه يلجأ إلى شتى الاستراتيجيات ذات الدور الدينامي في البنى البلاغية و الأسلوبية.

(5) - السياق الثقافي Le contexte culturel

يمثل النص ظاهرة ثقافية، لأنه غالباً ما يمكن أن يفهم الآخر من النصوص، البيئة الاجتماعية للجماعات الثقافية و نستنتج منها و من الحوارات المستعملة في المقامات دور أعضاء المجتمع و حقوقهم و واجباتهم و العادات و الأعراف السائدة بينهم و من أجل هذا فإن تحليل أي نص يتطلب مقاربات متنوعة كل منها تساعد من جهتها على فهم النص و القدرة على تحليله و استنتاج وظائفه و إدراك سياقاته.¹

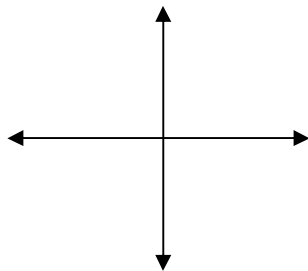
دي سوسير والسياق:

يعرف سوسير اللغة بأنها نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار². إنّ العلاقات اللغوية قد أخذت حيزاً كبيراً في مقولات سوسير بدءاً بتفريقه بين ثلاثة مصطلحات هي اللغة، واللسان والكلام وعدّ المصطلح الأول أوسع معنى بوصف اللغة ظاهرة إنسانية عامة تختلف عن اللسان الذي يعده خاصاً مقارنة مع اللغة إذ يمكن تحديده بدقة استناداً إلى القول أنّ اللسان لغة محددة بما فيها نظام مفرداتها وعناصرها المرتبطة كالنحو والصرف والمعجم بينما يرى أيضاً أن المصطلح الثالث ألا وهو الكلام يعني ما يترجمه الفرد من قواعد اللسان، لكن يخضع للنظام الفردي للمتحدث أي «الكلام هو الأداء الفردي للغة»³

من هذه المصطلحات ينتقل سوسير إلى الترابطات السياقية والإيجابية التي تعرف أيضاً بالتقاطع ذي

علاقات إيجابية

علاقات سياقية



المحورين الرأسي (العمودي) الأفقي يمثل:

¹ - علي أيت أوشن، 82.

² - ردة الله بن ردة ، دلالة السياق، ص167.

³ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص263، 264.

إن العلاقة الأفقية السياقية عند سوسير تقوم على عنصرين فأكثر، كلها متواجدة في الوقت نفسه ضمن سلسلة العناصر الموجودة بالفعل¹. أي أن عناصر الجملة أو وحداتها تنظم معاني في سياق أفقي متدرج زمنيا ، يجيء كل عنصر أو وحدة منها في عقب الآخر². كما تقوم على صفة الخطية للغة، أي أن الكلمات تتوالى على خط أفقي فكما لا يمكن النطق بصوتين في الوقت نفسه، لا يمكن كذلك أن يحتل رمز كتابي مكان غيره، أي المكان الذي يحتله الرمز الكتابي الأول. كل هذه العناصر تنظم الواحد تلو الآخر في الكلام يقول سوسير « إن مفهوم السياق لا ينطبق على كلمات فرادى فحسب، وإنما على مجموعات من الكلمات والوحدات المركبة مهما بلغت من الطول والتنوع³... » .

أما العلاقة الإيحائية الرأسية أو الجدولية : فتجمع بين عدد من العناصر بصورة غيابية لا وجود لها إلا في ذهن، وينشئ بذلك عددا من العلاقات الترابطية المختلفة الأنواع، على مستوى المعجم أو الصرف أو البلاغة...

يرى "سوسير" أن النظام اللغوي يتألف من عناصر داخلية وعلاقات خارجية، فالأولى تتمثل في دراسة نظام اللغة الداخلي أما الثانية فتتمثل في دراسة العلاقات القائمة بين اللغة والمؤثرات الخارجية .

كما يتميز سوسير كونه أول من نبه إلى وجود نوعين من الدراسة اللغوية، الدراسة الآنية الوصفية ووظيفتها دراسة اللغة في فترة زمنية معينة و الدراسة التاريخية، تهتم بدراسة التطور التاريخي للغة ولهذا يرى وجوب إسناد جميع أنماط السياقات التي تصاغ على منوال صيغ مطردة إلى اللغة لا إلى الكلام إلا أنه يفسر كلامه بالتمييز بين نوعين من السياقات :

السياقات المطردة أي الصيغ الجاهزة مثل لفظ أنفاسه، رجع بخفي حنين، لم ينبس ببنت شفة، فهذه الصيغ تنتمي إلى اللغة لأنها ليست فردية، وبالتالي لا تنتمي إلى حقل الكلام مع العلم أن التمييز بين ما ينتمي إلى اللغة وما ينتمي إلى الكلام أمر عسير للغاية لأنه لا حد ولا فاصل بينهما .

¹ - ردة الله بن ردة ، دلالة السياق ، ص168.

² - زينة مدواس، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء النظرية السياقية الحديثة، رسالة ماجستير 2001/2002، جامعة مولود معمري تيزي وزو، ص166.

³ - ردة الله، ردة ، دلالة السياق، ص169.

إنّ الكلمة عند "سوسير" إذا وقعت في سياق ما لا تكتسي قيمة إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق ولما هو لاحق بها أو لكليهما معا¹.

لأن الكلمة لا تؤدي معناها منعزلة عن السياق الذي وردت فيه، إنما تكون لها دلالة حين نستعملها في اللغة أو بالأحرى في الطريقة التي تستعمل بها أو الوظيفة التي تؤديها، وهكذا يكون سوسير قد فتح الطريق لظهور نظريات لسانية مختلفة لاسيما علم الدلالة الذي استمد مبادئه من المفاهيم المستوحاة من لسانيات سوسير.

فندريس والسباق (G.Vendryes):

أولى هذا العالم اللغوي الفرنسي أهمية كبرى للسياق وعدّه المميز الوحيد في المشترك اللفظي والعامل الفاصل الذي يحدد المعنى المقصود من الألفاظ المشتركة فسياق النص هو الذي يعين المعنى بدقة لأن المعجم لا يمنح إلا المعنى الأساس بينما السياق يعين قيمة الكلمة في كل الحالات ويخلصها من قيود الذاكرة ويحينها.

يختلف "فندريس" عن "سوسير" في كونه يحصر السياق في اللغة فقط بينما سوسير يربطه تارة باللغة وتارة أخرى بالكلام.

لكن يبدو لي أن "سوسير" لما ربط السياق باللغة في ما سمي بالسياقات المطردة كالأمثال كان يمكن أن يقول إنها عبارات لغوية مأثورة لها مواردها، لكن هذه الأمثال نفسها يمكن أن تنتمي إلى السياقات الحرة، أي إلى الكلام لأنّ الأمثال كما هي تستعمل في مواقف أخرى غير التي انبثقت منه وعليه فهي إلى اللغة وإلى الكلام انتمأوا . علما أن لكل مثل موردا ومضربا.

ياكيسون والسباق R.J.A KOBSON :

يرى "ياكيسون" أن اللغة وظائف، وكل عنصر من عملية التواصل تلازمه وظيفة، وهذا المخطط يوضح هذه العناصر الستة المشاركة في عملية التخاطب والتواصل:

سياق

2 مرسل ----- الإرسالية ----- مرسل إليه

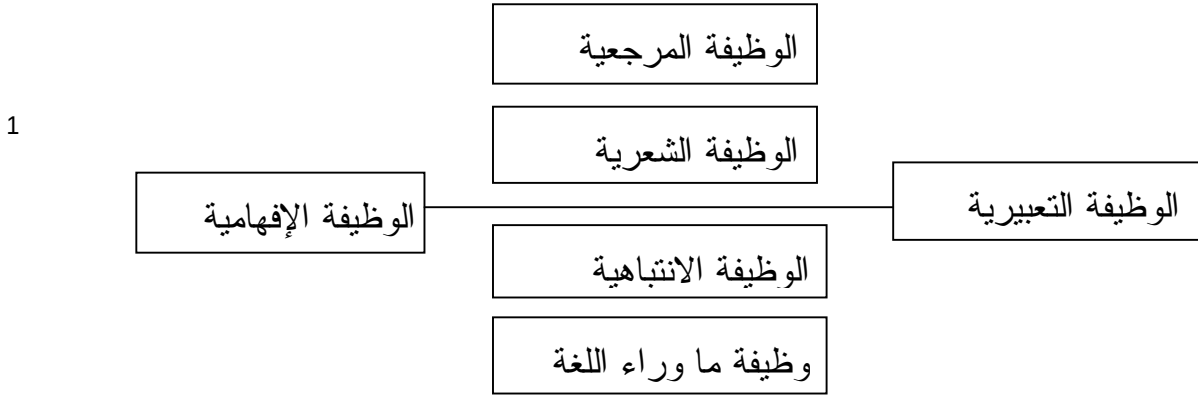
اتصال

سنن

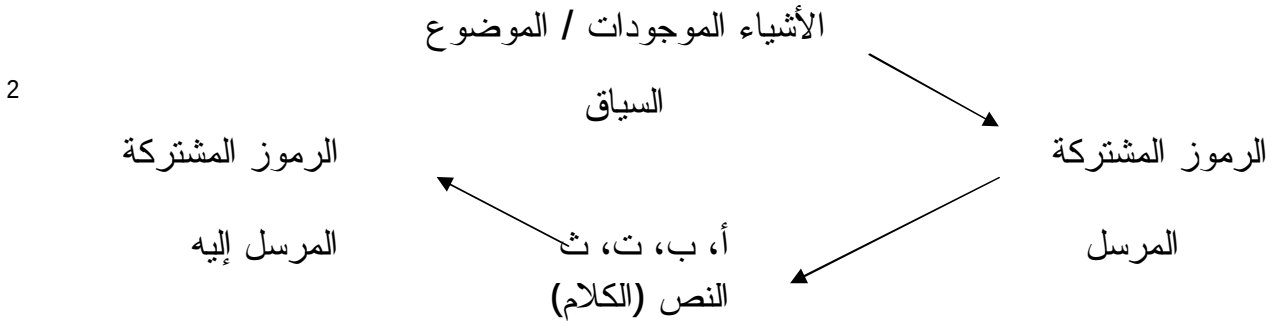
¹ - فيردناندي سوسير ، دروس في الألسنية العامة، تر- صالح القرمادي، الدار العربية للكتاب، ط1، تونس 1985، ص189.

² - رومان ياكيسون، قضايا شعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد حنوز، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء 1988 ص27، 28.

الوظيفة المهيمنة في التواصل اليومي هي الوظيفة المرجعية وتقوم على التقرير والنقل وهي التي تساعدنا على التواصل، لهذا يرى ياكبسون أن اللغة ذات وظيفة مرجعية بالنظر إلى سياق التخاطب، إلا أن الوظيفة المرجعية أحيانا تتقاطع مع وظائف أخرى كالوظيفة التعبيرية أو الانفعالية التي تشير إلى موقف المرسل من مختلف القضايا ولعل المخطط التالي يبين هذه الوظائف:



ما يفهم من مخطط ياكبسون أن اللغة وظيفة بإزاء أي عنصر من عناصر الاتصال الستة، وعلى هذا يكون السياق وظيفة لغوية تؤديها اللغة والمرجعية وظيفته. وهنا يرتبط حديثنا حتما بالموقف الذي بأشياءه وموجوداته وأحوال المتكلم والسامع، يعين على سرعة الفهم، ويمثل على الشكل التالي:



يرى « بروان » و« يول » أن العملية التواصلية لا تقوم بدون عناصر مشاركة فيها، حيث لا يفهم الخطاب ولا يؤول إلا إذا وضع في سياقه التواصل فكثر ما نقول شيئاً لا نقصد به معنى معيناً في سياق ما ونرمي إلى غيره في سياق آخر وهنا انتبه "هايمز" إلى نقطة مهمة هي أن السياق يسمح

¹- ردة الله بن ردة ، دلالة السياق، ص175.

²- المرجع نفسه، ص177.

بالتأويل، ولكن في الوقت نفسه يحصره ويضع له حدودا وينتصر للتأويل المراد. ولقد صنف "هايمز" خصائص السياق في المرسل، الملتقى، الحضور، الموضوع، المقام، القناة، النظام، شكل الرسالة، المفتاح والغرض¹.

هذه الخصائص كلها ذات قيمة معتبرة إلا أن المحلل قد ينتقي منها بعضها لغرض فكلما كانت المعلومات أوسع كان الفهم أسرع وأعمق، فقد يخيم الغموض على خطاب ما إن لم نعرف على الأقل المتكلم و المستمع و زمان ومكان الخطاب وفضاءه الجغرافي.

أما "ليفيتش" فقد حدد كذلك خصائص السياق ولكنه يختلف مع هايمز في الغرض فإذا كان هايمز يريد تحديد التأويل بالسياق فإن ليفيتش يتمثل غرضه في معرفة صدق أو كذب جملة ما ولهذا حدد خصائصه على الشكل التالي:

العالم الممكن: وهو أخذ الوقائع التي من الممكن أن تكون

الزمن: وهو الاعتماد على الجمل ظروف زمان كالיום، الأمس والأسبوع المقبل.

المتكلم: وذلك بالاهتمام بالجمل المحتوية على ضمائر المخاطب.

المشار إليه: وهذا يتحدد بما وظف من أسماء الإشارة هذا وهؤلاء أو ما له معنى الإشارة.

الخطاب السابق: اعتبار الجمل التي تتضمن الإحالة إلى جمل أخرى مثل (هذا الأخير إذا كان

الأول..المذكور سالفاً²....)

التخصيص: هي سلسلة أشياء لا متناهية.

إن هذه الخصائص ما دام المحلل يتكئ عليها فإنه يبدد الغموض في الخطاب، لأن أي خطاب

مجرد من السياق ولو جاء بلغة بسيطة إلا أنه يكتنفه الغموض فلا معنى للخطاب دون الإحاطة بسياقه.

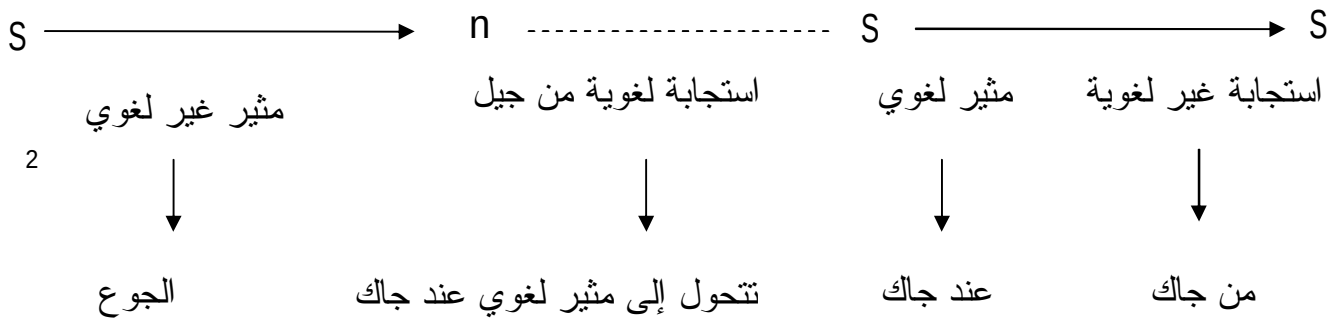
¹ - محمد خطابي، لسانيات النص، (مدخل إلى انسجام النص)، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 2006، ص53.

² - المرجع نفسه، ص54.

بلومفيلد والسياق : L. Blomfield

إنه صاحب المدرسة السلوكية الأمريكية، أشار إلى العناصر السياقية في دراساته اللغوية ولمحّ مرارا إلى أهمية المعنى في الدراسة اللغوية وصرح بأنّ المعنى هو ما يثيره الرمز اللغوي من استجابة عند السامع بالرغم من أنه قد ذكر سابقا بأن دراسة المعنى تقع خارج المجال الحقيقي لعلم اللغة وأردف قائلا: « إن تحليل المعنى ودراسته هو أضعف نقطة في دراسة اللغة وسيظل الأمر على هذا النحو حتى تصل المعرفة الإنسانية إلى مرحلة أكثر تقدما مما هي عليه الآن¹ » وبالتالي يبقى المعنى بعيد المنال و يبين أن دراسة الأصوات الكلامية بعيدا عن المعنى تعد دراسة تجريدية وليس في هذين التصريحين تناقض لأن "بلومفيلد" لم ينكر قيمة الدلالة في البحث اللغوي، إنما كان له منهجه الخاص الذي يقوم على ربط المعنى الدلالي بالظروف والملابسات التي تحيط بالحدث اللغوي، سواء كانت هذه الظروف لغوية أو غير لغوية.

يمثل بلومفيلد ذلك اعتمادا على قصته الشهيرة (جاك وجيل) الكاشفة عن المعنى في هذه الفقرة (جيل جائعة وترى تفاحة فتطلب من جاك أن يحضرها).



ومعنى هذا الشكل أن المثير غير اللغوي يؤدي إلى استجابة لغوية والمثير اللغوي قد يؤدي إلى استجابة غير لغوية وبالتالي فقد قسم " بلومفيلد" الحدث اللغوي ثلاثة أقسام هي :

الأحداث العملية السابقة على الحدث الكلامي.³

الكلام.

¹ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص271.

² - ردة الله ، دلالة السياق، ص179.

³ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص274.

الأحداث العملية التي تلي الحدث الكلامي.

لكن بالرغم من صلاح هذا التقسيم إلى حد ما إلا أنه لا يتسع ليحتوي جميع الحالات لأن ثمة حالات لا تتلاءم مع فكرة المنير والاستجابة، منها حالات العبادة والدعاء والمناجاة أما "ملينفسكي" فقد كان السباق إلى نظرية السياق في الغرب انطلاقاً من محاولته ترجمة بعض النصوص لمجتمعات بدائية فلما عجز تقطن إلى أن الكلام الملفوظ لا يكون له معنى إلا إذ سيق ولهذا قال: «إن اللغة أسلوب وعمل وليس توثيق فكر وليست وظيفتها إيصال الأفكار فقط، بل هي نشاط اجتماعي منسق»¹ فقد تصبح الكلمة جوفاء إذا أخرجت عن سياقها، ويرى أيضاً أن اللغة متأصلة في ثقافة المجتمع وعاداته لذا لا تتضح إلا بالرجوع الدائم إليه.

فيرث والسياق: JOHN Rupert Firth :

اتضح تأثر فيرث بـ مالمينوفسكي في تناول الاجتماعي للظاهرة اللغوية من خلال مصطلح سياق الحال الذي يعد ركيزة النظرية السياقية إلا أن فيرث كانت له نظريته إلى السياق مختلفة ولا عيج في ذلك لأن كليهما استجاب لتخصصه ونظرا إلى اللغة من زاويته بيد أن فيرث الذي أخذ عن مالمينوفسكي فكرة سياق الحال أعطاها بعداً أعمق فإن كان سياق الحال أو الموقف عند "مالمينوفسكي"

«تألف من الملامح الواقعية الفعلية التي يرتبط بالبيئة الثقافية والطبيعية التي حدث فيها الموقف»² فإنه عند فيرث أشمل أي «إنه تحصيل المعنى الإجمالي للكلام أو للنص من خلال النظر إلى الظروف والملابسات الاجتماعية التي يتم فيها الحدث»³.

أكد "فيرث" تأكيداً كبيراً على الوظيفة الاجتماعية للغة⁴، وعدّ مهمة البحث اللغوي منحصرة في تقصي معاني عناصر اللغة من كلمات وأصوات وجمل، لأن المعنى عنده هو «العلاقة بين العناصر اللغوية والسياق الاجتماعي بحيث تتحدد معاني تلك العناصر وفقاً لاستعمالها في المواقف الاجتماعية

¹ - ردة الله بن ردة، ص181

² - المرجع نفسه، ص190.

³ - زينة مدواس، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء النظرية السياقية الحديثة، ص173.

⁴ - ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط5، 1998، ص68.

المختلفة¹ » ومعنى الكلمة في النظرية السياقية، هو استعمالها في اللغة أو الطريقة التي تستعمل بها أو الدور الذي تؤديه، ولهذا يصرح فيرث بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة.

جعل فيرث السياق إطاراً منهجياً يُطبّق على الأحداث اللغوية ولما عدّ مهمة البحث اللغوي هي دراسة دلالية في جلّها على عكس ما ذهب إليه "بلومفيلد" بات من المؤكد تحليل السياقات والمواقف التي ترد فيها الكلمات حتى ما كان منها غير لغوي، وعليه فالكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي تقع فيه بل يتحدد معناها تبعاً لتوزيعها اللغوي ويشير أيضاً في هذا الصدد إلى أن حرفية الكلمات المنطوقة في الجملة المفردة لا تنبئ عن دلالة ذلك المنطوق، وذلك راجع إلى المواقف المتعددة التي تستخدم فيها لذا فإن السياق أساس إدراك الدلالات وتمايز مراميها واختلاف مقاصدها حتى لو جاء نص ما بلغة بسيطة فالمعاني الحقيقية لا تعطيها تلك الكلمات أو الجمل بدقة ما لم تدخل عناصر أخرى غير لغوية، فكأن السياق شمعة في ليل دامس لأنه هو الذي ينير الطريق للباحث ليصل إلى كنه الكلمات ويبدد غموضها خاصة إذا علمنا حالة المخاطب ثقافته وانتماءه الاجتماعي. كل هذا يلعب دوراً فاعلاً في استقبال الكلمات للباحث عن معانيها دون مقاومة تذكر، ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية والوسيلة التي تترجم خصائص المجتمع بات لزاماً على الباحث عن دلالات اللغة أن يربطها بالاستعمالات الاجتماعية لاسيما إذا علمنا أن العبارة الواحدة تدل على معنيين مختلفين في سياقين مختلفين وعلى سبيل المثال نذكر قول الله تعالى «اعملوا ما شئتم» وقوله (ص) «اعملوا ما شئتم» إن الصيغة في هذين القولين واحدة ولكن جاءت الآية الكريمة في سياق التهديد للكفار وورد الحديث الشريف في شأن من حضر بدراً فكان الأمر في سياق التبشير والتلطف ومن هنا حتى وإن كانت الصيغة أو العبارة واحدة إلا أن التفسير جاء مختلفاً وذلك لا يمكن إدراكه لو لا دور السياق الذي يعطي لكل عبارة معنى محدداً، بل ولكل كلمة معناها الخاص، وإذا أخذ مثال آخر وليكن متعلقاً بكلمة «حسن» فاستعمالها في سياقات لغوية مختلفة تمنح معاني متباينة منها: إذا وردت في سياق لغوي مع كلمة «رجل» تعني الناحية الخلقية وإذا وردت وصفا لطبيب كانت تعني التفوق في الأداء وإذا جاءت وصفا للمقادير كان معناها الصفاء والنقاوة².

¹ - ردة الله بن ردة ، ص191.

² -ينظر: أحمد مختار عمر ، ص69.

حاول فيرث إثبات صحة مقوله « المعنى وظيفة السياق »¹ لأن اللغة تدرس في ضوء الظروف الاجتماعية المحيطة بها كونها من عوامل العادة والعرف والتقليد وعناصر الماضي والإبداع وعندما يتكلم المرء فإنه يصهر كل هذه العوامل في خلق فعلي ملفوظ² ولهذا يصير فيرث على دراسة اللغة كجزء من المسار الاجتماعي أو كشكل من أشكال الحياة الإنسانية وليس كإشارات اصطلاحية³. وعمليا يقترح فيرث فكرة السياق على المستوى التواصلية وعلى مستوى النصوص الأدبية إذ يدعو إلى تحليل الملفوظ بتسبيق الوقائع سياقاً سياقاً لأن كل سياق جزء وظيفي في سياق أعلى ويتدرج في السياق الثقافي وهنا تتولد معان متميزة ذات دلالة اجتماعية.

وبعبارة أخرى إن السلوكيات الاجتماعية وأفعال الكلام لا يمكن فهمها ما لم تسبق داخل ثقافة معينة والسياقات تتداخل وتتكامل فيما بينها من أجل تكوين معنى معين ولا يقبل فيرث إهمال أي جزئية من الجزئيات، لأن ذلك قد ينقص من حظوظ الفهم السليم للمعنى هذا فيما يتعلق بالوصول إلى كنه الملفوظات اللغوية أي بالمستوى التواصلية. أما عندما نرغب في تحليل نص ما فإنه سوف تحكمنا ظروف اللغة المكون منها هذا النص، إضافة إلى البيئة التي ولد فيها وطبيعة كل من المنشئ والمتلقي لذا يمكن القول أن السياق ذو بعدين أساسيين هما:

1. البعد الداخلي: يتعلق باللغة وتراكيبها من حيث موقع الكلمة بين أخواتها والهيئة التي اختلفت فيها الكلمات مع بعضها ومكان هذه الائتلافات والتراكيب من الموضوع الجامع لها ويكمن دوره في تحديد معاني الكلمات وإزالة اللبس عنها وإبعاد المعاني الأخر التي تحتلها الكلمة في سياق آخر وإضفاء صفة الجمال أو الشاعرية أو الفنية عليها⁽⁴⁾.

2. البعد الخارجي: يتعلق بالظروف والخلفيات المحيطة بالنص سواء منها ما يتصل بالمخاطب أو المَخاطَب وكذلك البيئة الزمانية والمكانية النابع منها النص ويشمل أيضاً جملة من الملابس والأحوال والظروف القائمة في الإطار الزماني والمكاني لعملية التخاطب⁽⁵⁾ لكن المشكلة هي استحالة حصر القرائن الخارجة على التعبير الحرفي للغة لأنها كثيرة ومتشعبة وغير خاضعة لمعيار معين.

¹ - www.kam.edu.sa/files/372/reseaches/854.

² - ينظر: المرجع نفسه.

³ - زينة مدواس، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء النظرية السياقية الحديثة، ص 178.

⁽⁴⁾ - المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى (دراسة أسلوبية)، أكاديمية الفكر الجماهيري،، بنغازي 2011، ص 14-15.

⁽⁵⁾ - المرجع نفسه، ص 15.

و على مستوى النصوص الأدبية، يتوجب على الباحث أن يحلل النص على المستويات اللغوية المختلفة: الصوتية، الفونولوجية، المورفولوجية والنظمية والمعجمية ثم ينتقل في المرحلة الثانية إلى تبيان سياق الحال أي يدرس شخصية المتكلم و شخصية السامع وعلاقتهما، وجميع الظروف المحيطة بالكلام في ذلك الوقت ثم يبين ما نوع الوظيفة الكلامية: التمني، الإغراء...

وينهي عمله بذكر أثر كلام المتكلم (ضحك، تصديق، سخرية...¹)

إن يمر تحليل النصوص عند فيرث على أربع مراحل أساسية متداخلة متكاملة وهي مختصرة كما يلي:

التحليل اللغوي (الأصوات، الصرف والتركيب).

سياق الحال: (كل الظروف والملابسات المحيطة بالموضوع).

غرض النص: (التمني، الإغراء أم التحذير أم التوبيخ).

أثر النص (كيف تلقى السامع النص).

هكذا يكون فيرث قد طور فكرة السياق وجعلها أداة إجرائية وإطاراً منهجياً يقوم أساساً على تحليل المعنى الذي ينبغي أن يمر عبر المراحل التي اقترحها للولوج في عالم المعاني وعدّ العناصر غير اللغوية المتعددة والمختلفة عوامل مساعدة لتحديد المعنى، لأنها تصاحب عملية التكلم وكل هذه الأفكار استوحاها فيرث من تصوره الخاص للمعنى اللغوي فهو يخالف سابقه ومعاصريه، حيث أن اللغة عنده ليست مجرد بنى أو قوالب لغوية نصب فيها أفكارنا، بل هي أيضاً مؤسسة اجتماعية قائمة تتداخل مختلف العناصر وتتشابك لتجعلها وظيفية وهذا ما يجعل المعنى عنده حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع دون إهمال ما للملفوظ من دور في حد ذاته لأن الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى وبالتالي لا يمكن تحديدها ما لم يتم ملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها².

إنه ينبغي الأخذ بالحسبان الجمل السابقة والجمل اللاحقة لأنه قد لا نصل إلى كنه الكلمة فنبدد غموضها على مستوى جملة بل نتجاوزها إلى ما هو أوسع منها كالفقرة التي ترد فيها وأحياناً النص الذي يحتوي عليها من هنا نستنتج أن الكلمات ترد في تعالق فترتبط كل واحدة بكلمة أخرى أو بكلمات كي تظفر بقيمة دلالية أما في حالتها الإفرادية فإنها لا تدل إلا على معان عامة. إن السياق وحده هو الكفيل بوضع حدود

¹ - زينة مدواس، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء النظرية السياقية الحديثة ، ص179.

² - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص68.

بارزة بين المعنى العام (القاسم المشترك) والمعنى السياقي، لذا فهذا الأخير يعد تفصيلاً للمعنى العام الذي يوجهنا إلى المحطة التي تؤدي إلى المعنى المراد والسياق هو الاتجاه المخصص للسفر إلى المعنى المقصود . ولم يكتف فيرث بشرح معنى الدلالة ودور السياق في تبديد غموض نص ما بل حدد الأسس الخمسة التي يعتمد عليها لدراسة المعنى والوصول إلى مقاربة الدلالة وهي كالآتي:

الوقوف على الوظيفة الصوتية للصوت بوضع الأصوات في نظام من العلاقات الصوتية بحسب التركيب الصوتي للغة وتعد هذه الوظيفة من أهم الوظائف عنده.

الوقوف على الوظيفة المعجمية للكلمة.

الوقوف على الوظيفة المورفولوجية للكلمة وهي تختص بالنظر إلى السوابق واللواحق أو النظر إلى الكلمة من حيث أنها اسم أو فعل.

الوظيفة التنغيمية على مستوى التركيب حيث تظهر قيمة التنغيم Intonation في السياق الفعلي للحدث اللغوي

الوظيفة الدلالية تظهر في السياق ويدركها السامع ويعنيها المتكلم عن طريق ما يتوافر في السياق من ظروف أو أحوال أو ملابسات¹ و للوقوف على معنى كلمة ينبغي استخدام كل هذه الوظائف السابقة مجتمعة دون التفريط في أساس من الأسس المذكورة ولعل النموذج التالي يوضح عملياً كيف توظف هذه الأسس السالفة الذكر.

يرفض "فيرث" حصر المعنى في الذهن أو العقل أو وصفه علاقة متبادلة بين اللفظ والصورة الذهنية للشيء بل صرح بوجوب التحرر من فكرة الازدواجية في اللغة ودعا إلى إهمالها.

إن سياق الحال أو المقام عند فيرث يعني مجموعة من العناصر والملابسات التي تتضح وقت الكلام الفعلي هذه الظروف أو الملابسات² هذه الظروف والملابسات تتمثل في ما يلي:

- شخصية المتكلم، شخصية السامع وتكوينها الثقافي وشخصيات من شهد الكلام.
- الظواهر الاجتماعية والمناخية ذات العلاقة بالسلوك اللغوي وقت الكلام .
- أثر الكلام في المشتركين كالإقناع، الألم، الإغراء، الضحك...

¹- ينظر: عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين ، ص278- ص279.

²- المرجع نفسه ، ص282.

السياق عند جون لاينز:

يرى جون لاينز أن تفسير الوحدات الكلامية يجب أن ينطلق من نظريات العلوم الاجتماعية ونتائجها بصورة عامة إلى جانب علم النفس والانتروبولوجيا وعلم الاجتماع¹ لأنّ السياق يلعب دوراً رئيساً في تفسير الوحدات الكلامية على مستويات مختلفة ومتعددة و يحدد حسب "جون لاينز" معنى الوحدة الكلامية على مستويات ثلاثة متميزة في تحليل النص.

أية جملة تم نطقها

أية قضية تم التعبير عنها

تدعيم قوة لا كلامية للقضية²

يقوم السياق في كل هذه الحالات الثلاثة بتحديد ما يقال حسب المعاني المتعددة للفعل «يقول» لكن معنى الوحدة الكلامية يتضمن أيضاً الغرض. لذلك قسم جون لاينز الوحدة الكلامية قسمين :

- الناحية الكلامية

- الناحية لا كلامية

يتضح من هذا التقسيم أنه يقصد بالناحية الكلامية اللغة وبالناحية اللا كلامية العناصر غير اللغوية وشرح وحدة كلامية مرهون بمدى فهم المنطوق وما يصاحبه أي الإشارات و كل ما له علاقة بذلك المنطوق من ملابسات وظروف و سلوكات وإيماءات...

أنواع السياق:

يقوم السياق بأدوار كثيرة في التفاعل الخطابي وفي الولوج إلى معاني الكلمات والجمل، بل حتى النصوص. تحدث كثير من اللغويين حول أنواع السياق. واقتراح K.AMMER أربعة أنواع منها :

(1) - السياق اللغوي: هو الاعتماد على الوحدات الدلالية وتجاورها في تركيب ما بحيث لا يحدد معنى وحدة دلالية معينة ما لم يتم النظر إلى ما صاحبها في التركيب، لأن الكلمات حين تدخل في تركيب ما تشكل نسيجاً لغوياً يعتمد كل جزء فيه على الآخر.

¹ - جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، تر، عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد 1987، ص242.

² - المرجع نفسه، ص222.

(2) - السياق العاطفي: يحدد درجة القوة و الضعف في الانفعال مما يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالا فكلما الكره غير كلمة البغض، بالرغم من اشتراكهما في أصل المعنى¹.

يقول "ستيفن أولمان" "إن السياق وحده هو الذي يوضح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف أو أنها قصد بها التعبير عن العواطف و الانفعالات² لأنه يحدث كثيرا أن يصدر الشخص حكما أو يتخذ قرارا في لحظة عاطفية مميزة ثم لا تلبث أن تزول تلك الظروف فيسرع إلى تغيير حكمه أو قراره فالعاطفة تختلف من شخص لآخر بل تتغير في الشخص الواحد من لحظة لأخرى حسب الظروف و الطوارئ، و بالتالي يستعمل الشخص أحيانا في كلامه لغة مشحونة بالانفعالات تظهر جليا في حركاته، صوته، نبراته، ملامحه و عباراته.

على الباحث اللغوي أن يتفطن إلى أن المعاني الموضوعية و المعاني المرتبطة باللحظة الانفعالية التي يعيشها المتكلم و كل انفعال يصدر منه تعبير خاص فالتعبير عن الفرح لا يمكن أن يكون نفسه مع التعبير عن الحزن و الغضب و الغبطة يولدان تعبيرين مختلفين، كما أن المضطهد الذي يشعر بالظلم و الجور و الحيف يكون كلامه مشحونا بعاطفة قوية حين تتاح له الفرصة للتعبير عن العدل و الحق مقارنة بالذي يحدثنا عنهما و لم يمسه ضرر من هذا القبيل فالنبر و الإيقاع و التنغيم و اختيار الكلمات و اللواحق و نظام ترتيب الكلمات و مواقعها في الجمل كل هذه الأمور مجتمعة أو متفرقة قد تظفر بإحداث التأثير لأنها تقيد في تنويع التعبير عن الانفعال إن السياق العاطفي يتعلق بالأداء فالضغط مثلا على مقطع معين يعطي معنى عاطفيا ما و نبرة الصوت لها من الدلالات مقدار لا يستهان به فلرفع الصوت و خفضه معان متباينة أما الإيقاع و التنغيم فهما بمثابة موسيقى الكلام .

(3) - سياق الموقف : يسمونه أيضا سياق الحال و يعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة يدخل فيه كل ماله علاقة بالكلام من ظروف اجتماعية و نفسية و ثقافية للمتخاطبين³ وبالتالي لابد على الدارس اللغوي أن يتفاعل مع المقام المتكون من العناصر الآتية:

¹ - أحمد عمر مختار، علم الدلالة، ص72.

² - زينة مدواس، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء النظرية السياقية الحديثة، ص190.

³ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص71.

(أ) **المتكلم** : إنَّ مشاهدة المتكلم أثناء الكلام الفعلي تعين على فهم الحدث اللغوي لأن كل متكلم له خصوصياته كمعجمه الخاص ومميزاته الصوتية وميولاته وثقافته .

(ب) **السامع وعلاقته بالمتكلم**: علاقة المتكلم بالسامع تقتضي نوعاً من الحديث كحديث التلميذ مع أستاذه فهو حديث مؤطر ومقيد بتلك العلاقة وكذلك علاقة المريض بطبيبه.

(ج) **مجال الحدث**: أي الوقوف على موضوع الحديث وكل ما يتصل به من أحداث لأن ذلك يساعد على فهم الحدث اللغوي.

(د) **الزمان والمكان**: لا يمكن الاستغناء عن عنصري الزمان والمكان اللذين ورد فيهما الحدث اللغوي من أجل الوصول إلى المعنى المبتغى.

(4) - **السياق الثقافي**: و هو سياق يقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة فاستعمال كلمة "عقيلته" تدل على طبقة اجتماعية عالية، لأن العامة تستعمل كلمة زوجته و إذا أخذنا كلمة "جذر" فعند المزارع معنى، و عند اللغوي معنى آخر و في الرياضيات قضية أخرى¹ و يعد السياق الثقافي ركيزة أساسية في عملية الترجمة خاصة، إذ لا يمكن الاستغناء عنه بل يجب على المترجم أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الثقافي للنص المترجم حتى يقارب الصواب في ترجمة محتواه لأن الترجمة صعبة للغاية لا سيما إذا تعلق الأمر بالنص المقدس أو بالنص الأدبي أو بالنص الفلسفي و يتيه المترجم إذا اعتمد على الترجمة الحرفية في اللغة و لا يصل إلى المعنى المنشود إلا بالاعتماد على السياق الثقافي و عليه فاللغة استعمال، و المعنى يبقى غامضاً بعيداً عن السياقات المختلفة و لكن ما إن يسبق الكلام حتى يتقطر المعنى منه ويتميز السياق الثقافي للنص بالديناميكية المحركة لتعددية المعنى، فليس السياق الثقافي مجرد ألفاظ ساكنة وإنما متوالية لا نهائية من المعاني لأنه يتصل بثقافات أخرى².

¹ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص71.

² - عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، ط1، عمان 1999، ص31.

من هنا فإنه لا يستطيع أحد نكران أهمية المنهج السياقي في الوقوف على المعنى الدلالي و إبرازه لأنه يعد الاتجاه الصحيح و الضروري في الكشف عن المعنى¹ يقول "طاهر حمودة": تعد نظرية السياق على النحو الذي حدده "فيرث" من أفضل المناهج لدراسة المعنى بسبب ما تميزت به من عناية بالعناصر اللغوية و الاجتماعية و لكن بالرغم من وجود مدعي هذه النظرية وهم كثر إلا أنها لم تسلم من الانتقادات فهناك من يرى أن "فيرث" لم يقدم نظرية شاملة للتركيب، اللغوي واكتفى فقط بتقديم نظرية للسيمانتيك و يرى آخرون أن كثرة الاعتماد على السياق الاجتماعي يصعب من مهمة الباحث اللغوي لأنه لا يمكن إخضاعه لقاعدة ما فالسياق الاجتماعي للحدث اللغوي واسع جدا يحمل في طياته نسيج الثقافة، أي العادات، التقاليد و الأعمال اليومية والعرف و الفلكلور الشعبي والذاكرة الجماعية و الذاكرة الشعبية ثم الإحساسات و العواطف الشعبية.² و كل ما له صلة بالمجتمع بل بالحياة ككل لقد ساند "أولمان" هذه النظرية وعدها الحجر الأساس في علم الدلالة إلا أنه يرفض الحكم الذي مفاده أن الكلمة المفردة لا معنى لها دون السياق و يرى ذلك مبالغة و حكم غير موضوعي لأن الكلمات في المعجم بمثابة ملتقى الطرق و السياق يختار السمت المناسب الذي يعين على الوصول إلى لب المعنى، وهناك من يرى « أن سلطة السياق و هيمنة المرجع و غلبة الخارج لم تعد قائمة في حسابان القراءة النسقية إلى درجة الشطط في اليقين و الغلو في الاعتقاد بأنه لا وجود لشيء خارج النص »³. لكن مهما يكن لا يمكن أن ننكر قيمة السياق في تحديد الدلالات نظرا لكثرة المعاني، ومن الجحود إلغاؤه بحجة الاعتماد على القراءة النسقية.

¹ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص287.

² - ينظر: حسان تمام، اللغة العربية معناها و مبناها، عالم الكتب، ط4، القاهرة 2004، ص42.

³ - أحمد يوسف، القراءة النسقية، (سلطة البنية و وهم المحايدة)، ج1، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2003، ص151.

السياق بمنظور النقد العرب المحدثين :

انتقل الفكر اللغوي الحديث من الغرب إلى ميدان التفكير اللغوي في العالم العربي إثر التفاعل الفكري بين الشرق و الغرب، و لعل أبرز تفاعل هو اتصال اللغويين المحدثين العرب بغيرهم من الغرب لتطوير الفكر اللغوي العربي، فشرع الدارسون لعلم الدلالة يتداولون النظريات الدلالية الغربية ويحاولون تطبيقها على علم الدلالة العربي بعد تكييفها مع اللغة العربية، فنالت نظرية السياق حظاً وافراً في تلك الدراسات، بحيث ترجم اللغويون العرب مصطلح Theory of context إلى مصطلح نظرية السياق فكان السياق عديلاً لمصطلح context في اللغة الإنجليزية، وهذا المصطلح في علم الدلالة الغربي يشمل نوعين هما¹:

السياق اللغوي أو اللساني أو المقالي.

السياق المقامي أو غير اللغوي أو الحالي أو الاجتماعي.

الملاحظ على هذا التقسيم أن الغربيين لا يقابلون كلاً من القرائن اللغوية والقرائن المقامية بمصطلح خاص، بل يضعون مقابلهما مصطلحا واحدا وهو Context وهذا ما جعل اللغويين العرب يحذون حذو الغربيين في اختيار مصطلح السياق بوصفه اللفظ المعبر عن شقي السياق في الدراسات الغربية أي الشق اللغوي المقالي والشق غير اللغوي المقامي، يقول محمد عروة « يستعمل مصطلح السياق في سياقات متعددة بعضها لغوي وآخر اجتماعي واقتصادي وسياسي غير أن المعاجم تقدم له تعريفاً ينطبق من حيث الجوهر على تلك السياقات جميعاً، فالسياق في مجال تحليل الخطاب هو سلسلة الأفكار التي تجسد نصاً ما وبالتحديد السياق هو مجموع النص الذي يحيط بالجملة التي يراد فهمها وعليه يتوقف الفهم السليم لها أو هو المحيط الذي أنتجت فيه العبارة² » أما فريد عوض حيدر « فإنه يعرف السياق على أنه علاقة لغوية أو خارج نطاق اللغة يظهر فيها الحدث الكلامي³ » يفهم من كلامه أنّ السياق نوعان وهما: السياق اللغوي وسياق الموقف (الحال) وبعث أكثر يرى سالم خدادة أن « السياق يعني الكلمات التي تسبق كلمة أو عبارة أو جملة والتي تساعد في بيان ما تعني هذه الكلمة أو العبارة أو الجملة وهو كذلك

¹ - ينظر: نجم الدين قادر كريم الزنكي، ص 36.

² - المرجع نفسه ، ص 37.

³ - المرجع نفسه، ص 52.

الظروف التي تحيط بالحدث والتي يجب مراعاته من خلالها ومعنى هذا التعريف أنّ السياق عنده هو البنية اللغوية في اتصالها بما قبلها وما بعدها أي السياق اللغوي كما أنّه الظروف والملابسات التي تحيط بالحدث اللغوي أي السياق المقامي «¹ بينما "إدريس حمادي" يعرفه» بكونه يشمل كافة القرائن التي تسهم في عملية الفهم لغوية كانت أم غير لغوية «² ، في حين نجد "يونس صويلحي" يعرف السياق على أنه جميع العناصر اللغوية وغير اللغوية أو نظام المحددات التي تعكس رؤية للنص المدروس³ » وغير بعيد عن المعنى السابق يرى "تعمان جُغيم" أن سياق الخطاب يأتي على نوعين: سياق لغوي ويشمل الجمل المكونة والسابقة واللاحقة لنص الخطاب المراد تفسيره واستخلاص المقصود منه، وسياق اجتماعي (المقام) وهو حصيلة الظروف الاجتماعية والطبيعية والنفسية السائدة وقت صدور الخطاب⁴. وإذا اقتربنا من "محمود توفيق سعد" فهو يعرفه عند الأصوليين على أنه مقصور على الجانب المقالّي فلا يتناول القرائن الحالية والملابسات الخارجية.

وهو إذا أطلق ولم يقرن بكلمة "سياق" شمل السابق واللاحق فإن قرن كان مقصوراً على لواحق اللفظ⁵ لكن ما الدليل على أن الأصوليين لم يهتموا بالمقام؟

أما "إسماعيل الحسيني" يخالف معاصريه لأنّه جعل المقام أعمّ من السياق المقالّي وبالتالي يُقسم المقام إلى مقام المقال ومقام الحال فيقول: يدل المقام على مقتضيات الأحوال وهي جميع العناصر المكوّنة لمقام الخطاب من مقام مقاله ومن مقام الحال⁶ وفي هذا الصدد يقول "سالم خدادة": المقام يدل على ظروف القول كما يدل على علاقات القول فإذا كانت الدلالة الأولى مشهورة في قولهم « لكل مقام مقال » فإنّ الدلالة الأخرى واضحة في قولهم « لكل كلمة مع صاحبها مقام⁷ » و يرى أيضاً بناء على هذا التعريف أنّ المقام مصطلح عرفه النقاد والبلاغيون التراثيون بمعنى السياق بنوعيه: المقالّي والمقامي. ويرى بعض الباحثين أن السياق والمقام مترادفتان تقوم إحداها في المعنى مقام الأخرى أمّا

¹ - ينظر: نجم الدين قادر كريم الزنكي ، ص52

² - المرجع نفسه، ص52.

³ - المرجع نفسه ، ص53.

⁴ - المرجع نفسه ، ص54.

⁵ - المرجع نفسه، ص54.

⁶ - المرجع نفسه، ص54.

⁷ - المرجع نفسه، ص54.

"عبد الوهاب الحارثي" فيرى أنّ السياق هو الكلام الذي خرج مخرجاً واحداً واشتمل على غرض واحد هو المقصود الأصلي للمتكلم وانتظمت أجزاءه في نسق واحد. لكن أبرز اللغويين الذين عنوا كثيراً بالسياق هم: حسان تمام، كمال محمد بشر و "محمود السعران"، وكلهم تتلمذوا على يد فيرث مؤصل النظرية السياقية، لهذا برزت بصماته في أعمالهم جلية و لمعرفة نظراتهم إلى السياق لأبد من العودة إلى مؤلفاتهم التي أثروا بها المكتبة العربية. بين حسان تمام، نظرتة إلى السياق من خلال مؤلفيه مناهج البحث في اللغة و اللغة العربية (معناها و مبناها)، قسم الدرس اللغوي ستة مستويات هي: منهج الأصوات ، منهج التشكيل الصوتي منهج الصرف ، منهج النحو منهج المعجم و منهج الدلالة واهتم أكثر بمنهج النحو و الدلالة بحيث عدّه دراسة العلاقات بين الأبواب النحوية ممثلة في الكلمات على مستوى الجملة أو العبارة فمثلاً حين نعرب جملة " أَلْفُ الأُسْتَاذِ كِتَابًا" فإننا ننسب "ألف" إلى باب الفعل المبني على الفتح، الأستاذ إلى باب الفاعل و كتابا إلى المفعول به و هذه الجملة على هذا النمط تمثل العلاقات المتبادلة بين هذه الأبواب الثلاثة و بالتالي فالكلمة تشغل وظيفة في الجملة تتحصل عليها من خلال صيغتها و مكانتها بعيدة عن المعنى المعجمي و هذا رأي محترم إلا أنه لا يصمد أمام تشعبات اللغة بحيث يؤكد اللغويون أن معنى الكلمة اللغوي كثيراً ما يفيد و يساعد على إعراب كلمات ما و مثالنا على ذلك قول الله تعالى«و إن كان رجل يورث كلالة أو امرأة»¹ سئل أحد النحاة عن إعراب كلمة كلالة فاستفسر أولاً عن المعنى اللغوي للكلمة المطلوبة إعرابها لما قيل له : " الورثة فرد عليهم" : إن لم يكن فيهم أب فما علا و لا ابن فما سفل هي إذن تمييز² و من هنا فإن الإعراب يستعين بالمعنى و يحتاج إليه لا سيما إذا علمنا أن الكلمة تكسب وظيفتها الإعرابية حسب الصيغة و وضعها في الجملة و هاتان الصفتان غير ثابتتين و بالتالي تأخذ الكلمات أوضاعاً مختلفة على مستوى التركيب فقد نجد المفعول به مقدماً على الفاعل أو على الفعل و الفاعل معاً كما قد يتقدم الخبر عن المبتدأ. ربط حسان تمام النحو بمفهوم السياق اللغوي بكونه النظم اللفظي للكلمة و موقعها من ذلك النظم أما على مستوى الكلمة فقد رأى أنّ تقسيم الكلام يجب أن يقوم على الأسس التالية: الشكل الإملائي المكتوب التوزيع الصرفي، الأسس السياقية، المعنى الأعم و المعنى الوظيفي، الوظيفة الاجتماعية³.

¹ - سورة النساء، الآية 12.

² - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء و المحدثين، ص312.

³ - المرجع نفسه ، ص313.

من خلال هذا التقسيم يتبين مدى تأثر حسان تمام بالنظرية السياقية بحيث يبرز ارتباط الكلمة بما قبلها و ما بعدها على مستوى التركيب فالتمييز بين الضمير المنفصل و الضمير المتصل في تصريف بعض الأفعال أمر عسير ما لم يتدخل السياق، لأن الرسم الإملائي لهما لا ينزع اللبس عنهما، و نمثل له كما يلي: ¹

هم يحضرون ← يحضرهم
هم يجدون ← يجدهم

من هنا يدرك أن السياق هو ما يبين المعاني الوظيفية للكلمات.

أما الوظيفة الاجتماعية فيقصد بها سياق الحال أو السياق الاجتماعي و يتضمن كل ما له علاقة بالكلام من ظروف اجتماعية و نفسية و ثقافية للمتحدثين و ما يفرضه من دلالات خاصة و تلاحظ أن بعض الكلمات لها دلالات اجتماعية و هي مبنية على أساس القيمة الاجتماعية مثل الأب، الأم ، المدرس الطالب، الزملاء ، الرئيس و القائد.

قسم الكلام أربعة أقسام هي: الاسم، الفعل، الضمير و الأداء طبقا للوظيفة الاجتماعية التي تفرق بين الاسم و الضمير و لهذا جعل الإبدال في السياق صفة لتلك الصيغة كالإبدال بين الضمير الدال على الرفع و الاسم الظاهر في القول: المسلمون أخيار بل هم خير أمة أخرجت للناس.

يمكن أن نضع الاسم الظاهر : المسلمون أخيار بل المسلمون خير أمة أخرجت للناس.

ثم اقترح ثلاث وسائل للترابط في السياق.

وسائل التماسك السياقي / وسائل التوافق السياقي / وسائل التأثير السياقي.

يقتضي التماسك السياقي توافقا بين أجزاء معينة في السياق، و هذه الأجزاء هي: الشخص و العدد والنوع.

¹ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء و المحدثين ، ص 314.

نقول أنا أقوم أو نحن نقوم لا يتضح إلا الشخص و العدد أما النوع فلا يفهم إلا من سياق الكلام و هذا الجدول يمثل هذه القضية تمثيلا واضحا:

الجملة	الشخص	العدد	النوع
أنا أقوم	أنا	مفرد	غير واضح
نحن نقوم	نحن	جمع	غير واضح
أنت تقوم	أنت	مفرد	المذكر
أنت تقومين	انت	مفرد	المؤنث
أنتما تقومان	أنتما	الثنائية	غير واضح
أنتم تقومون	أنتم	الجمع	المذكر
أنتن تقومن	أنتن	الجمع	المؤنث
هو يقوم	هو	مفرد	المذكر
هي تقوم	هي	مفرد	المؤنث
هما يقومان	هما	مثنى	المذكر
هما تقومان	هما	مثنى	المؤنث
هن يقمن	هن	جمع	المؤنث

في ضوء هذا الجدول يتضح أن السياق اللغوي يقتضي التوافق بين أجزاء الجملة، و هذا ما سماه حسان تمام بالتوافق السياقي.

ينتقل حسان تمام إلى الفكرة الأساسية من السياق فيُتبين تركيز الدراسات اللغوية العربية على قضية المعنى المستوحاة من "فيرث" و لذلك قسّم المعنى قسمين.

أ- المعنى المقالي: يقوم على شبكة من العلاقات السياقية التي تتمثل في مجموعة القرائن اللفظية و المعنوية التي تقتزن بالسياق و ما أطلق عليه المبني و استوحاها حسان تمام كلها من القواعد النحوية و سماها القرائن المعنوية و هي على خمسة أنواع:

- 1- قرينة الإسناد ← علاقة المبتدأ بالخبر، الفعل و الفاعل
- 2- قرينة التخصيص ← التعدية في المفعول معه
- 3- قرينة المخالفة ← المنصوبات و تغير المعنى بتغيرها إلى المرفوعات
- 4- قرينة النسبة ← معاني حروف الجر التي بها تنتسب معاني الأفعال إلى الأسماء
- 5- قرينة التبعية ← مثل الصفة، التوكيد ، البذل و العطف¹.

ب- القرائن اللفظية هي العلامة الإعرابية ، الرتبة، مبني الصيغة المطابقة، الربط ، التضام الأداة و النغمة.

كما تحدث حسان تمام في هذا الصدد عن الظواهر السياقية المختلفة في اللغة العربية منها ما يتعلق بالأصوات فيورد أمثلة عدة حول النظام الصوتي للغة العربية، فيرى مثلاً " أن الدال مجهورة و أن التاء مهموسة و يصير النظام على اطراد هذه القاعدة و إطلاقها و لكن الكلام هو التطبيق العملي لنظام اللغة قد يشتمل على دال ساكنة متبوعة بتاء متحركة و هنا نجد أن تجاوز الحرفين على هذا النحو يتسبب في صعوبة عضوية أي يصعب التلفظ بهما بوضوح، و بالتالي يتحتم الانحراف عن النظام و يتسبب في اللبس إذا أصر أحد على النطق بهما و أمام هذه المشكلة يتدخل السياق و يحلها بالإدغام فتبدو لنا الدال و التاء في النطق كالتاء المشددة

قعدت = قعت في مستوى النطق

يستدرك في مكان آخر ويُقرّ بأن هذه الظواهر السياقية ليست ناجمة عن ثقل العملية العضوية لأننا لو طبقنا النظام اللغوي بحذافيره ما شعرنا بذلك الثقل في النطق و نقصد بهذا الكلام عملياً أنه لو عزف المتكلم عن الوقف بالسكون و شكل الحرف الأخير بما منحه له النظام لما كان هناك أي نوع من الثقل

¹ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص317.

من الناحية العضوية و ما يؤكد قولنا هذا هو عزوف الشعراء الوقف بالسكون في قوافيهم لاعتبارات ذوقية في صياغة السياق العربي و بعبارة أوضح، إن ما يتحكم في الظواهر السياقية إنما هو كراهية التقاء صوتين أو مبنين يتنافى التقاؤهما مع أمن اللبس أو مع الذوق الصياغي للفصحى لأن اتجاه الذوق العربي متجسد في عدة ظواهر سياقية ككراهية توالي الأضداد، كراهية توالي الأمثال، من هنا نستنتج أن اللغة العربية ترضى بالتقاء المتخالفين وتستحسنه كثيرا بينما التنافر يتنافى والذوق العربي أما التماثل فإنه يؤدي إلى اللبس لذلك يختار الشعراء من الكلمات ما تباعدت مخارجها لأنّ الفصاحة تقتضى ذلك يقول السيوطي في المزهرة قال ابن دريد في الجمهرة : «اعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت»¹ ويرى أيضا أن رتب الفصاحة متفاوتة فإن الكلمة تخف وتثقل بحسب الانتقال من حرف إلى حرف لا يلائمه قربا أو بعدا «فإذا تباعدت مخارج الحروف حسن تأليفها» أما الخطيب "القزويني" فيعرفها، «إنها الخلوص من تنافر الحروف و الغرابة ومخالفة القياس اللغوي».²

إن ظاهرة التأليف مرتبطة بتناسق مخارج حروف الكلمة فبحسبها تتجاوز الحروف في الكلمة أو لا تتجاوز و هذه الظاهرة استعان بها النقاد العرب التراثيون في الكشف عما سموه التنافر اللفظي وعلى أساسها بنوا نقدهم لكلمة "مستشزرات" التي وردت في معلة امرئ القيس ولعبارة «وليس قرب قبر حرب قبر» وكما روي أن أعرابيا سئل عن ناقتة فقال : «تركتها ترعى ألهمع»

مرد كل هذا أن الذوق العربي يعزف عن التنافر الذي تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان ويعسر النطق بها، وهذا ما يتحاشاه الشعراء و يترصده النقاد لتعلق ذلك بمفاهيم الفصاحة والبيان. تحدث حسان تمام عن مختلف الظواهر السياقية كالتأليف، الوقف، المناسبة، الإعلال و الإبدال والتواصل، الإدغام، التخلص، الحذف، الإسكان، الكمية، الإشباع والإضافة، النبر والتنغيم لكن ما يهمننا أكثر في هذا البحث هو النبر و التنغيم لما لهما من علاقة وطيدة بالسياق إنهما يلعبان دورا رئيساً في التمييز بين معنى و معنى آخر فكيف يرى حسان تمام النبر باختصار؟

¹ - حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص267.

² - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر 2007، ص10.

النبر نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد ويعرفه "حسان تمام" بأنه «إزدياد وضوح جزء من أجزاء الكلمة في السمع عن بقية ما حوله من أجزائها»¹، لكن هذين التعريفين لا يشيران إلى دور النبر في توضيح المعنى والتمييز بين الكلمات من حيث الاسمية والفعلية ويستخدم النبر في بعض اللغات بمثابة "فونيم" وللنبر في اللغة العربية دور كذلك في التمييز بين معنى وآخر بحيث يدل التركيز على مقطع أكثر من آخر على التوكيد أحياناً «كما يحدث حين ينطق شخص بـ: "لا" مع شيء من التركيز على اللام»².

يرى حسان تمام أن اللغة العربية لا تفرق بالنبر بين الأسماء والأفعال لكن في الكلام أي في معنى الجملة تمنحه معنى وظيفياً³، فلما نقارن بين الجملتين:

اذكر الله - واذكري الله

إن قراءة الجملتين تتم بطريقة واحدة والسبب أن الياء أصبحت في الجملة الثانية تنطق بمقدار الكسرة لفقدان كميتها، ومن ثم يتضح اللبس فلا يعرف السامع إذا كان المتكلم يخاطب رجلاً أو امرأة، هنا يحسم النبر في هذين المثالين بحيث يكون النبر في الجملة الأولى على مقطع همزة الوصل ويكون في الجملة الثانية على مقطع الكاف ليدل على طول الياء لأن النبر يقع على ما قبل الأخير.

أما الظاهرة السياقية الأكثر وروداً في الحديث عن السياق هي "التنغيم".

التنغيم عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية الإيقاعات في حدث كلامي معين وهو الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق⁴، ويرى "حسان تمام" التنغيم بادياً في ارتفاعات وانخفاضات أو تنويعات صوتية تسمى نغمات الكلام وهي تؤدي وظيفة نحوية حسبه لأنه يمكن التمييز بالتنغيم بين الجملة المثبتة والجملة المنفية والجملة الاستفهامية ومن هنا يتبين أن للتنغيم دوراً مهماً بل هو عنصر فعال من عناصر السياق الصوتي وله من الوظائف ما يجعله ذا قيمة لا يستهان بها بحيث يوجه الإعراب

¹ - حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 17.

² - عبد النعيم خليل، ص 47.

³ - حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 308.

⁴ - عبد النعيم خليل، ص 47.

في كثير من الأحيان فعندما توظف (كم) التي قد تستخدم للإخبار أو للاستفهام فالتنغيم هو الذي يميز بينهما وحينئذٍ يختلف إعرابها في الحالتين ومثل ذلك: قول "الفرزدق"

كم عمة لك يا جرير وخالة

فدعاء قد حلبت على عشاري

رويت كلمة "عمة" في بيت الفرزدق مرفوعة ويجوز أن تأتي منصوبة كما يمكن أن ترد مجرورة

الرفع ————— ← كم عددية

النصب ————— ← كم استفهامية

الجر ————— ← كم خبرية¹

وللتنغيم دور أيضاً في التمييز بين أسلوبَي التعجب والاستفهام (قصة أبي الأسود الدؤلي وابنته حول نجوم السماء) وكذلك يتدخل التنغيم للتفريق بين النداء والاختصاص .

قال أحد الشعراء:

إنما الأرض والسماء كتاب

فاقرعوه معاشر الأذكىاء

فالنطق بالتعبير (معاشر الأذكىاء) يتطلب تنغيمًا معينًا يفهم منه المتلقي أن المتحدث ينادي كأنه يقول (يامعاشر الأذكىاء) .

التنغيم ظاهرة تتضح في كثير من المواطن، كأن يتظاهر المتكلم بأمر هو عكس ما يتطلب الموقف من تنغيم فإذا قص حادثة مات فيها عدد من أصحابه و أقربائه و يحاول أن يبدو هادئاً كي يجنب إثارة أحزان لدى السامعين فيصطنع لهذا الكلام الذي يحمل في ثناياه نغمة الحسرة نغمة أخرى تبديه في ثبات فنقر حينئذ أن التنغيم ظاهرة سياقية ويتجلى أيضا التنغيم في طريقة أداء الكلام، فقولنا مثلاً "بلاد بعيدة" وأثناء النطق بها نمددّ الياء مدًا طويلاً يبين الإلحاح على ذكر البعد، وكذلك إذا قلنا «فوق» للتعبير عن رمي حجارة إلى علو شاهق مددنا حرف المد بصورة ملحوظة لإظهار مدى ما وصل إليه الحجر.

¹ - عبد النعيم خليل، ص49.

وكذلك مقولة «رايح جاي»¹ فكلا الكلمتين تكتسب نغمة خاصة فكلمة "رايح" أعلى من نغمة "جاي" حين نكرر الكلمتين يتم بالنغمة المخصصة لكليهما. يرى أحد الباحثين أن: «السياق هو العش الذي تحيا فيه اللفظة وهذا ما يؤكد الوظيفة الاجتماعية للغة ومن هنا فإن تعدد المعنى الوظيفي للأداة ودلالاتها يكون حسب ما تفيده من السياق»² ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها بات من الممكن حصرها في مواقف اجتماعية متنوعة، هذه المواقف هي التي تسمى بالمقام فهناك مقامات عديدة ومختلفة منها : مقام الفخر، مقام المدح، مقام الدعاء أو الاستعطاف و مقام الهجاء.... لذا قال البلاغيون (لكل مقام مقال) فكل مقام وله خصوصياته من كلمات وأسلوب حقيقي أو مجازي أو إخبار أو استفهام وهذا يقتضي أيضا ما جمعه في قولهم «لكل كلمة مع صاحبها مقام» ومن هنا نرى بأن البلاغيين التراثيين فطنوا إلى فكرة المقام والمقال وكانوا السباقين إلى وصفهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى .

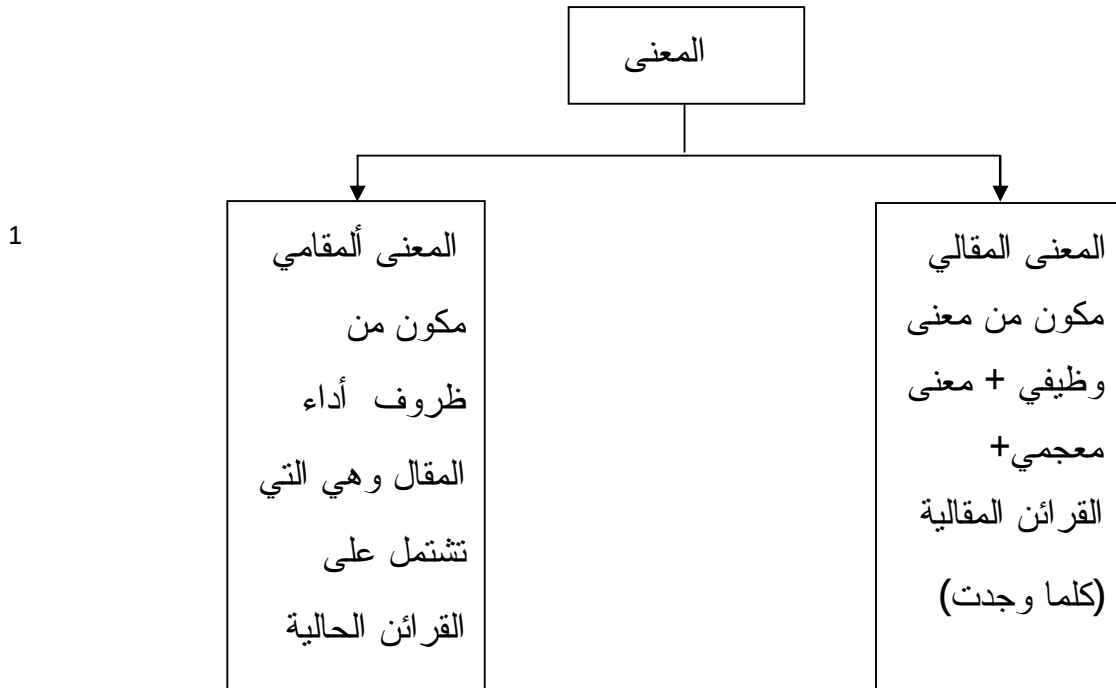
إن سياق المقام أو السوسيوثقافي يتمثل في مجموعة المحددات المجتمعية و السويولوجية (مستشفى فصل دراسي، محكمة) أو بظروف الحياة اليومية مطعم محادثة غير رسمية..... التي تحدد العادات الفكرية وتوزع الأدوار التي يؤديها المشاركون خلال عملية التخاطب لذلك نجد أن للمراتب الاجتماعية وسلطة القائل أهمية بالغة في التوجيه السياقي. إذا ما أريد فهم مقطع خطابي³ .

من المسلم به أن توضيح المعنى على المستوى الوظيفي (الصوتي، الصرفي ، النحوي) وعلى مستوى المعجم يمنح معنى المقال أو ما يسمى المعنى الحرفي ولكن إذا أردنا الوصول إلى صلب المعنى وجب البحث أيضا عن كل ما يحيط بالنص من القرائن الحالية أي تخطي المعنى المقالي إلى المعنى المقامي وهما متكاملان وهذا الشكل يوضح ما ذهب إليه "حسان تمام".

¹ - حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص310.

² - صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية (عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع هجري)، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008، ص367.

³ - عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص (المفهوم العلاقة السلطة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2008، ص133.



لعل أبرز مثال يوضح عمليا هذه العلاقة بين المقال والمقام هو قول سيدنا علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وهو يعلّق على هتاف الخوارج «لا حكم إلاّ الله» فلقد قال «كلمة حق أريد بها باطل» فكأنه يريد ظاهر النصّ وعسل وباطنه سمّ وكان ينبغي للناس أن يفهموا المقال في ضوء المقام.²

إذا أوردنا مثالا بسيطا لجملة نستخدمها كثيرا في حياتنا اليومية وهي «يا سلام» نجدها متكونة من حرف نداء (يا) ومنادى (سلام) و السلام ≠ الحرب كما إن هذه الكلمة تعد من أسماء الله الحسنى.

فكأننا إذن ننادي "الله سبحانه وتعالى" ولكن لما نمعن النظر في العبارة نفسها نجدها تصلح في مقامات اجتماعية كثيرة ومختلفة ومع كل مقام نغمة خاصة تصاحب العبارة فتأتي الأغراض متباينة، منها النطق بها في مقام التأثر، في مقام التشكيك، في مقام السخط، في مقام الطرب، في مقام التوبيخ، في مقام الإعجاب.....³.

ميز "حسان تمام" بين الموقف والمقام حيث عدّ الموقف بسيطا والمقام مركبا و أورد مثالا عن الرجل الذي قال لزوجته «أهلاً بالجميلة» إن هذه الجملة يمكن توظيفها في مقامات عدة كأن تذكر في

¹ - حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص339.

² - المرجع نفسه، ص328.

³ - المرجع نفسه ، ص345.

مقام غزل أو مقام توبيخ أو مقام كيد، لكن المعجم لا يمنحنا هذه المعاني بل تحتاج إلى اعتبار المقام، أما إذا كان النص مكتوبا فتتقص كثير من العناصر المقامية وهنا يقترح علينا حسان تمام إعادة بناء هذا المقام الأصيل بناء جديدا بواسطة وصفه كما كان، ولابد من الرجوع إلى الثقافة عموما وإلى التاريخ خاصة لأنه كلما كان وصف المقام أكثر تفصيلا تقطر المعنى الدلالي سريعا وكان أكثر وضوحا. وفي السياق نفسه أشار إلى دور الموسوعة في الوصول إلى كنه المعنى الدلالي، لأن ثمة أموراً تحتاج إلى استرجاع مختلف ما خزنه المتلقي من علوم وفلسفة ومقولات وتاريخ..... لأن النص يتجاوز أحادية المعنى وينتج دلالات كثيرة اعتمادا على الخلفية المعرفية للمتلقي حيث تشكل الخلفية المعرفية والذاكرة الخاصة بالقارئ إلى جانب سيرته الذاتية، لغته، ظروف نشأته، انتمائه الديني والعربي والإيديولوجي ما يدعى بالموسوعة التي تعين على تطور القراءة والتسلل إلى أعماق المعاني الدلالية. وللموسوعة دور لا يمكن الاستغناء عنه فهي تتدرج في سياق استثمار مجموعة من المفاهيم الأساسية من أجل تحديد العمل التأويلي بين القارئ والنص.

إن المقام عند حسان تمام عبارة عن مجموع الأشخاص المشاركين في المقال ثم العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في نطاق الزمان والمكان كما يحتوي المتكلم والسامع أو السامعين والظروف والعلاقات الاجتماعية والأحداث المنتمية إلى الماضي والحاضر ثم التراث والفلكلور والعادات والتقاليد والمعتقدات¹.

يرى حسان تمام أن ثمة فرقا بارزا بين المقام والموقف، فإذا كان المقام عاما فان الموقف خاص بحيث يشتمل مقام الصلاة، أو الدعاء والقراءة في الخلوة أو تقييد المواعيد والعناوين، ولا يبدو في هذه المقامات الطابع الاجتماعي لذا يسميها حسان تمام مواقف فردية لا مقامات اجتماعية ويدعم رأيه بمثال حول سائق السيارة الذي يزعه ويضيق عليه سائق آخر في الطريق حتى يوشك أن يتسبب له في حادث مرور، كلنا يعلم رد فعل هذا السائق حين يرتبك، حتما سينهال على السائق المثير لهذه الحادثة بوابل من الشتائم وهذا موقف فردي لا يتوافر له عناصر المقام الاجتماعي و "الكاظمين الغيظ" سيقولون: «الله يهديك» بعد أن يتنفسوا الصعداء، لكن قد يقول قائل هذه السلوكات يكتسبها الفرد من

¹ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص322.

مجتمعه و ثقافته فكيف لا نسمي تلك المواقف مقامات؟ يرد حسان تمام على هذا التساؤل بقوله : «أفراد المجتمع جميعا يقفون هذه المواقف بعينها عندما تنتهيأ لها المناسبة و لكنهم يقفونها أفراداً¹»

وفي المقامات الاجتماعية يتبادل الناس أطراف الحديث في أوقات خاصة بحيث يكون الكلام ليس مقصودا لذاته إنما للانطلاق في حوار مثل الحديث عن الطقس كمبادرة لتبادل أطراف الحديث خاصة في قاعات الانتظار و الغاية من هذا اللغو هو الرفع من الحرج الناتج عن الصمت السائد. لقد منح المجتمع موضوعات مناسبة لمثل هذه الحالات و هي كل الموضوعات التي لا تمس شخص الإنسان : ميولاته مستواه العلمي... المهم أن تكون الموضوعات عامة غير شخصية، يقول حسان تمام: « بحيث لا يتأذى بفتحها إنسان لا غائب و لا حاضر فمن ذلك الكلام في الطقس وما يحس به المتكلم و السامع من حر أو برد².

تحدث محمود السعران في كتابه (علم اللغة) عن مدرسة فيرث التي تنظر إلى المعنى على انه صورة مركبة من مجموعة الوظائف اللغوية الصوتية و الفنولوجية و المرفولوجية و النحوية و المعجمية إضافة إلى السياق الاجتماعي للحدث اللغوي.

ويرى أنه للوصول إلى المعنى ينبغي تحليل النص اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة، تبيان سياق الحال (الماجريات) شخصية المتكلم ، شخصية السامع و جميع الظروف المحيطة بالكلام ثم تبيان نوع الوظيفة الكلامية التمني ، الإغراء وفي الأخير يذكر الأثر الذي يتركه الكلام³.

وهذه الأسس قد ذكرناها في موطن آخر قبل هذا لأنها نفسها مع اقتراح "حسان تمام" و الفرق بينهما أن كتاب محمود السعران تناول قضية السياق في غالبه من منظور تاريخي فكأن به قام بترجمة نظرية "فيرث" إلى العربية دون أن يطور منها شيئاً.

تحدث "كمال محمد بشر" عن المقام أو ماجريات الحال حيث يرى أن المقام ليس مجرد مكان يلقي فيه الكلام وإنما هو إطار اجتماعي ذو عناصر متكاملة كالمتكلم و السامعين و علاقاتهم ببعض و كل ما يفيد فهم الكلام و الوقوف على خواصه و الكلام نفسه.

1- حسان تمام ، اللغة العربية معناها ومبناها، ص343

2- المرجع نفسه، ص344.

3- ينظر: عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص323.

ليس هذا فحسب بل كل ما يحيط بالحدث اللغوي يعد عنصرا من المسرح اللغوي.

لا يتم الولوج إلى المعنى إلا عبر "هذا الإطار العام بما فيه شخوص وديكور و عدد و آلات وحركات الشخوص وسلوكاتهم وحركات الجسم وإشاراته و إيماءته... و قناعة منه بجدوى هذه النظرية يدعو إلى تطبيقها بكل عناصرها في جميع مستويات الدرس اللغوي حتى على اللغة المكتوبة بالرغم مما يمكن أن يواجهه الباحث اللغوي من صعوبات كفقدان المسرح اللغوي و عنصر النطق"¹. ويرى أن هذا الأمر ممكن لكنه يحتاج إلى جهود مضنية وذكاء متسعر ثاقب و ثقافة غزيرة تمكن من دراسة ظروف النص زمانه، مكانه، كاتبه، ثقافة كاتبه، مناسبة النص و الجو العام و الخاص الذي يحيط بتأليف هذا النص و من ثمة تكون في حاجة ماسة إلى تدخل مختلف العلوم كالتاريخ، السياسة والاجتماع ناهيك عن ثقافة المجتمع عاداته و تقاليده.

أما فيما يتعلق بالمعنى عند فيرث فلم تختلف نظرة كمال بشر إليه مقارنة بحسان تمام و محمود السعران، بحيث حصر الظروف و الملابس التي تقوم عليها نظرية فيرث حول المعنى في ثلاثة أركان هي:

الظواهر المتصلة بالمشاركين في الكلام و الاستماع.

الأشياء و الموضوعات المتصلة بالكلام و الموقف.

أثر الكلام الفعلي.

يلاحظ إذن حسب هذه الأسس أن تلاميذ "فيرث" لم يختلفوا في نظرهم إلى السياق و إلى المعنى بيد أن "حسان تمام" كان أكثرهم تعمقا وإضافة و توضيحا، لما أخذه عن "فيرث"، لاسيما أنه أكثر من الجانب التطبيقي بينما اكتفى زميلاه بالجانب النظري فقط، و الجديد الذي لمسناه عند كمال بشر هو مجيئه بمصطلح يوازي سياق الحال و هو المسرح اللغوي.

يرى مصطفى ناصف أننا نقبل على النص وفي ذهننا المفهومات العامة لمعظم الكلمات التي يستخدمها الكاتب « لكن في النص الأدبي ترتبط الأفكار ارتباطا وثيقا باللغة ففي القراءة الأولى للنص نفهم من العبارات المعنى الذي يؤديه إلينا ارتباطنا السابق بالكلمات، لكننا إذا أخذنا نشك في هذا الارتباط

¹ - ينظر: عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين ، ص327.

السابق بدأنا نلمس معنى آخر نراه وثيق الارتباط ببناء النص لذلك يكون النص إلى حد ما هو الذي هدانا إلى طريق معناه»¹ إنه يعد الكلمات بمثابة مظاهر الاتجاهات أو أفكار أو سياق عام.

ويقول «الكلمات لا تعدو أن تكون رموزا لأشياء كلية هامة وحينئذ ينبغي لنا أن نبحث عن الإطار أولا ثم نبحث عن الكلمات ثانيا»²، فالسياق عند القدامى لا يخرج عن معنى العبارة أو عدة عبارات وانتهى إلى أن السياق قد يعطي المدلولات التي لا يمكن أن تعزى بشكل مباشر بسيط الى وحدة معينة أو وحدات مضمومة بطريقة آلية³، وما قدمه يكشف عن قراءته للنصوص النقدية التراثية وخبرته بما تنطوي عليه من مفاهيم وتصورات وحدود.

يكفي هؤلاء فخرا أنهم استقرأوا مجموعة من القواعد اللغوية لاسيما الدلالية منها. فأسسوا منهجا تطبيقيا واضحا فبات لزاما على الراغبين في تطوير البحث اللغوي أن يعتمدوا على أعمال هؤلاء للانطلاق نحو أفق أوسع وأرحب في الدرس اللغوي العربي، لئن ركزنا في بحثنا هذا على هؤلاء الأوائل الذين فتحوا الطريق للنظرية السياقية لولوج العالم العربي في العصر الحديث فان ثمة لغويين آخرين بعد حسان تمام آثروا أن يحملوا على عاتقهم هذه النظرية رغبة في توضيح بعض عناصره أو لعلمهم يأتون بجديد كان لوقت مضى مجهولا، لكن حصروا بحوثهم في مصطلح المقام أو سياق الحال في أبسط صورته و قليل منهم من تناول السياق اللغوي، اللهم إلا ما قام به حلمي خليل في كتابه " العربية و علم اللغة البنيوي"⁴، حيث يرى أن السياق عند "فيرث" ينقسم قسمين : السياق اللغوي و سياق الحال و هذا ما قد ذكره سابقوه وأفرطوا فيه.

بينما أحمد مختار عمر خصص في كتابه (علم الدلالة) قسما خاصا بنظرية السياق وعرض فيه تعريفات مختلفة لبعض العناصر السياقية و ذكر بإيجاز أنواع السياق بحيث عدّ أربعة أنواع وهي: السياق اللغوي، السياق العاطفي، سياق الحال و السياق الثقافي⁵، كما مثل للسياق اللغوي بطريقة واضحة و دقيقة فبين بذلك الدور الفعال الذي يقوم به السياق في الكلام ، وينقل عبد النعيم خليل نصا

¹ - مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص160.

² - المرجع نفسه، ص161.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص161-162.

⁴ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص332.

⁵ - ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص69.

لأحد الدارسين يقول فيه: « تعد نظرية السياق على النحو الذي حدده فيرث أفضل المناهج لدراسة المعنى بسبب ما تميزت به من عناية بالعناصر اللغوية و الاجتماعية.....»¹ كما أشار إلى ضرورة استصحاب سياق الحال لدراسة النصوص اللغوية المكتوبة لأن الغموض الذي يكتنف عدة نصوص غالبا ما يكون سببها قطعها عن سياق الحال أو غياب بعض عناصره و المثال الآتي يبين مدى قيمة الأداء الصوتي و ما يصاحبه المتكلم من حركات أو إشارات، قال الشاعر (الكميت):

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

ولا لعبا مني و ذو الشيب يلعب

فالسؤال الذي طرحه النقاد هل قوله « ذو الشيب يلعب » استفهام أم خبر؟

لو ورد في اللغة المنطوقة لسهل التمييز و لاتضح المعنى أكثر و لكن بما أن هذا البيت الشعري جاء مكتوبا، رأى النحاة بإمكانية حذف همزة الاستفهام على أن تكون الجملة استفهاما إنكاريا و رأوا أيضا احتمال وقوع هذه الجملة موقع الإخبار فقط و هذا اللبس وقع بسبب فقدان عنصر من عناصر السياق الحالي و هو الأداء الصوتي.

نظرا لصعوبة تطبيق النظرية السياقية تطبيقا كاملا قال بعض الباحثين بوجوب إلغاء السياق من الدراسة، ليس كإجراء فحسب بل كوجود. يقول صلاح الدين صالح حسين موضحا الأمر: «هناك لغويون يستبعدون السياق من الدراسة في علم الدلالة والسبب الحقيقي في هذا الاستبعاد هو وجود مصاعب في الربط بين المفهوم و ما يشير إليه في العالم الواقعي أو العالم غير الواقعي»² لكن لا تكمن الصعوبة في تطبيق النظرية السياقية بقدر ما تكمن في سوء فهمها وإلا كيف يدعى إلى رفضها وإلغائها بحجة صعوبة تطبيقها أليس الأجدر أن نقرأ بإمعان ويبحث عن تفاصيلها في أمهات الكتب العربية والغربية من أجل استيعابها فتطبيقها؟

¹ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص333.

² - صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية (عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع هجري) ، ص370.

الفصل الثاني

السياق في التراث العربي

أ) - السياق عند الأصوليين

ب) - السياق بين اللغويين والنحاة

ج) - السياق عند البلاغيين

د) - السياق في النقد الأدبي

السياق عند الأصوليين:

علم الأصول هو عبارة « عن إدراك القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية، هو أيضا طرق الفقه ⁽¹⁾ » ، فأصول الفقه هي أدلة الفقه وجهات دلالتها على الأحكام الشرعية و كيفية حال المستدل بها من جهة الجملة لا من جهة التفصيل بخلاف الأدلة الخاصة المستعملة في أحاد المسائل الخاصة.

إنه علم مبني على القواعد الموصلة بذاتها إلى استخراج الأحكام، و الذين يطبقون هذه القواعد و يبحثون في هذا العلم يسمون "الأصوليين" وهم علماء أصول الفقه أو الفقهاء الذين تحدثوا عن الأدلة الشرعية للأحكام الفقهية ² و أولوا عناية كبيرة للسياق في دراساتهم و عدّوه سبيل كشف المعنى المراد.

إذا كان فضل التأسيس لهذا العلم الجليل يعود إلى الإمام الشافعي في كتابه "الرسالة" فوجب البداية بالحديث عنه، لقد كان أول من تعرض لمعنى البيان و وجوهه في كتاب الله حيث قال: "إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها"³ و ذكر في سياق كلامه أن هناك ظاهر الكلام المستغني بأوله عن آخره و غير الظاهر المفتقر إلى القرائن للتوصل إلى المعنى المنشود ⁽⁴⁾ و هذه القرائن قد تتضح في أول الكلام أو في آخره أو في ما بينهما و قد يتجسد في إشارة و بين أيضا أن القرآن نزل وفقا لمعهود العرب في اللسان و أفرد بابا خاصا سماه (باب الصنف الذي يبين سياقه معناه) يدعمه في ذلك كثير من العلماء حيث يقول الجويني « المعاني يتعلق معظمها بفهم النظم و السياق » ⁽⁵⁾ و قال العز بن

¹ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء و المحدثين ص235.

² - ينظر: ردة الله بن ضيف الله الطلحي، ص130.

³ - المرجع نفسه ، ص130.

⁽⁴⁾ ينظر: نجم الدين الزنكي ، ص11 .

⁽⁵⁾ فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي، ص68.

عبد السلام توضيحا للسياق عند الأصوليين: "أنه مرشد إلى تبين الجملات و ترجيح الاحتمالات و تقرير الواضحات و كل ذلك يعرف بالاستعمال⁽¹⁾

أما ابن تيمية فلقد أولى عناية كبرى للسياق بنوعيه اللغوي و غير اللغوي حين صرح "أن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه و ما يحف به من القرائن اللفظية الحالية"⁽²⁾ لأنه دون السياق لا يعرف مقصود القرآن الكريم و لا السداد من الضلالة، لهذا أصر الأصوليون على دراسة اللغة العربية سواء لذاتها أو بحثا عن فهم النص القرآني، و من ثمة العمل به على أحسن صورة.

قسم الأصوليون أصول الفقه أربعة أقسام.

1- الأحكام الشرعية

2- الأدلة الشرعية

3- طرق الاستدلال (القواعد الأصولية اللغوية)

4- أحكام الاجتهاد

و لما ارتبط الأصوليون باللغة و ازداد اهتمامهم بدلالات الألفاظ و علاقتها بالمعاني بات من الضروري تحليل هذه العلاقة فرأوا أن يقسموها أربعة أقسام:

1- اللفظ في المعنى الذي وضع فيه (الخاص، العام و المشترك)

2- اللفظ في المعنى الذي استعمل فيه (الحقيقة و المجاز)

3- اللفظ بحسب ظهور المعنى و خفائه (الظاهر و الخفي)

4- اللفظ حسب طرق الوقوف على مراد المتكلم.⁽³⁾ و بناء على هذه الأقسام الأربعة التي قسمها

الأصوليون يتبين مدى اهتمامهم بمختلف أشكال العلاقة التي تربط اللفظ بالمعنى سواء على المستوى المعجمي أو التركيبي أو السياقي لأنه قد يلتبس المعنى، فيلجأ إلى السياق حتى يقضي على الغموض و حين تفقد حلقة السياق في سلسلة المعنى، فالأمر عسير و قد لا يتأتى المعنى المرجو. أشار الإمام

(1) - فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي، ص68.

(2) - المرجع نفسه، ص68.

(3) - ينظر: علي أيت أوشان، ص114.

الجويني إلى أن اللفظ لا يمكن فهمه بمعزل عن السياق الذي نطق فيه، لأن كل صيغة مقيدة بقرائن مقالية أو حالية، ونبه إلى أن هذه الأخيرة يعسر ضبطها لكن يلح على ضرورة اعتماد السياق في تكييف التصرفات النبوية و إعماله للترجيح بين النصوص المتعارضة، و يؤكد ابن تيمية:

"أن السياق هو الذي يؤسس معنى اللفظة"⁽¹⁾ و لا يعترف بما يسمى الوضع السابق و خلافاً لجل العلماء إنه ينفي المجاز و يصر على الأخذ بالحسبان حال المتكلم و المستمع و صفات المتكلم و عاداته و أسلوبه و معهد المخاطب و عرف التخاطب في تفسير الخطاب"⁽²⁾ و يرى ابن قيم الجوزي أن للسياق أثراً بالغاً في فهم الخطاب لذا وجب معرفة عادات المتكلم و أوصافه و خصاله و مقاصده للوصول إلى غرض الخطاب و لا يختلف الشاطبي عن غيره من العلماء في هذا الموضوع بل يقر بوجوب معرفة أسباب النزول و عادات العرب آنذاك لإدراك الغرض الذي خرج عليه الخطاب و أشار إلى "ضرورة رد أول الكلام على آخره و آخره إلى أوله بحسب واقعة النزول و سببها و فهم مقتضيات الأحوال فيها و وحدة الموضوع"⁽³⁾

ارتبطت بحوث الأصوليين باللغة، فما من باحث أصولي، إلا و تطرق إلى المسائل اللغوية و النحوية و الصرفية و الدلالية كما عمد كثير منهم إلى الحديث عن المطلق و المقيد، المجمل و المبين و وجدوا صيغاً عدة لدلالات مختلفة بحسب السياق، الذي وردت فيه و لهذا عنوا بالسياق كثيراً و اعتمدوا عليه في بيان المعنى في النصوص الشرعية و أدركوا تماماً أن ثمة نوعين من القرائن السياقية: اللغوية و المقامية و عرفوا الأثر الذي تتركه هذه القرائن في تحديد دلالة النص، لقد رصدوا دلالات متعددة للأمر و النهي معتمدين على بعض عناصر السياق اللغوي كالنبر و التنغيم و ميز أبو حامد الغزالي بين أمر إيجاب و أمر استحباب و ندب، و أمر وجوب كقوله تعالى: "و أقيموا الصلاة و أتوا الزكاة"⁽⁴⁾ و أمر استحباب و ندب كقوله تعالى: "فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً"⁽⁵⁾

(1) - نجم الدين الزنكي، ص14.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص14

(3) - المرجع نفسه، ص15، 16.

(4) - سورة: المزمل، الآية 20.

(5) - سورة: النور الآية 33.

إضافة إلى معان أخرى كالإرشاد و الإباحة و الامتتان و الإكرام و التهديد، و التسخير (الذلة و الامتهان) و التعجيز و الإهانة و التسوية و الدعاء و التمني و الاحتكار.....⁽¹⁾

أما الوقف فقيمته بارزة جدا نظرا لقدرته على تغيير المعنى تماما و لعل أبرز دليل على هذا الموضوع قول الله تعالى: « و هو الله في السموات و في الأرض يعلم سركم و جهركم » (الأنعام: 3) فعند قراءة هذه الآية يمكن أن نتوقف عند كلمة الأرض و يكون لها معنى مخالف لو يتم التوقف عند كلمة السماوات.

تكون القراءة الأولى بالتوقف عند الأرض " و هو الله في السماوات و في الأرض، يعلم سركم و جهركم " وتكون القراءة الثانية بالتوقف عند السماوات فنقول:

" و هو الله في السموات ، و في الأرض يعلم سركم و جهركم "

يرى أبو حامد الغزالي "أن اللفظ المفرد قد يصلح لمعان مختلفة كالعين للشمس و الذهب و العضو الباصر و قد يصلح للمتضادين كالقراء للطهر و الحيض و الناهل للعطشان و الريان و قد يصلح للمتشابهين كالنور للعقل و نور الشمس"⁽²⁾ يشير في مقام آخر إلى أهمية القرائن غير اللغوية كالرموز و الإيماءات و حركات الجسم للمتكلم و التغيرات التي تطرأ على وجهه و عاداته و مقاصده و أشياء أخرى يعسر ضبطها بدقة لأنها حالات قد تتغير من حين لآخر ثم أنه إن لم تكن معرفة مسبقة بين المتخاطبين فأسلوب الخطاب يكون على شكل و إن تتوافر هذه الخاصية فيتم التخاطب بأسلوب مغاير و يتم التفاهم بأقل تكلفة للطرفين، يحكى عن الرسول (ص) أنه رد السلام على يهودي بقوله (ص): و عليكم ما قلتم" و ليس هذا الرد من عادات خير الأنام و لا من شيمه، و لما استفسر أجاب سائله بأن هذا اليهودي لم يكن يقصد السلام الحقيقي أو التحية الإسلامية بل أراد: لم يبق لكم شيء و كيف للرسول (ص) أن يرد بهذه الطريقة علما أنه كان يوصي برد التحية بأحسن منها مصداقا لقول الله تعالى:

"إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها"⁽³⁾

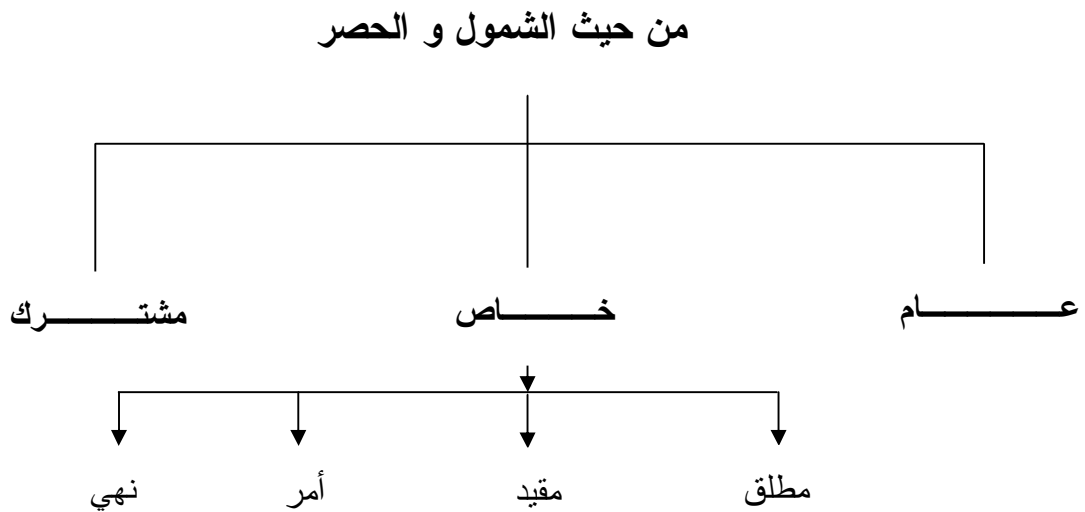
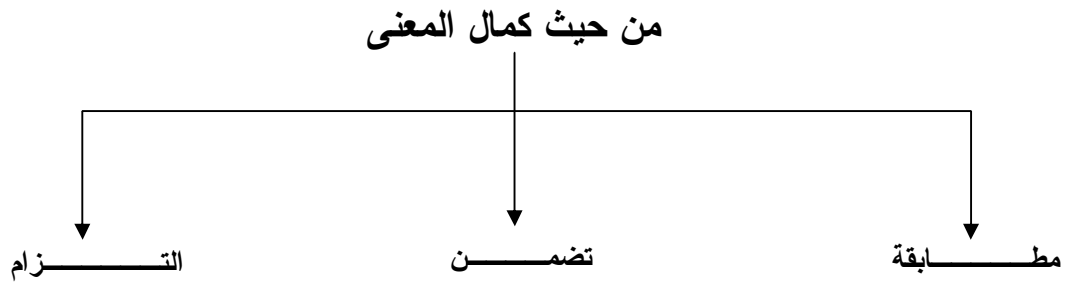
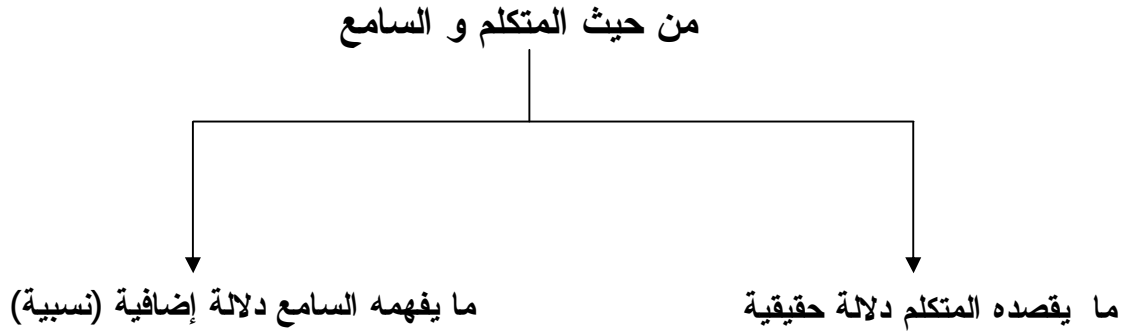
(1) ينظر عبد النعيم خليل ص 238، 239.

(2) www.Kam.edu.sa/files/372/researches/854

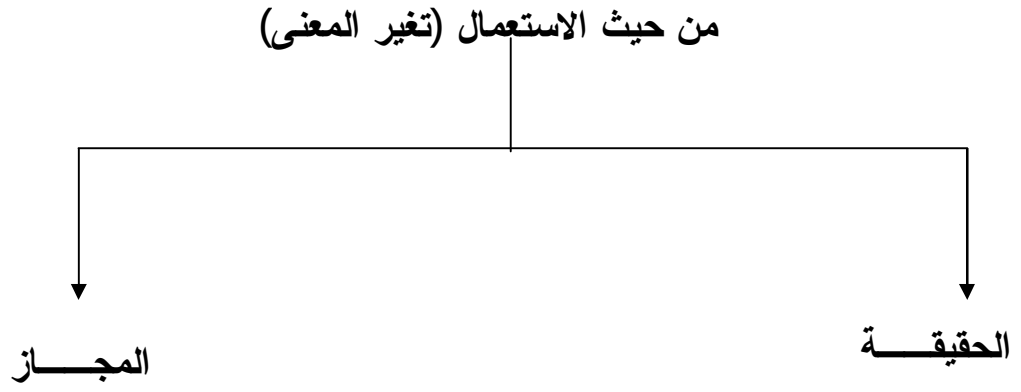
(3) سورة النساء، الآية 86

كيف إذن يجيبه بتلك الطريقة لو لم يكن على معرفة مسبقة بهذا اليهودي و ما يضره من ضغينة و حقد للإسلام.

إن قلة المباني في اللغة مقارنة بالمعاني جعل دلالتها تتعدد على أوجه و صور مختلفة و النصوص تحتمل معاني عديدة⁽¹⁾ و لهذا قسم الأصوليون الدلالة أقساما متعددة بحسب المتكلم و السامع بحسب الشمول و الحصر و الاستعمال و التجلي و الخفاء و الأشكال الآتية توضح كل هذه الأقسام.

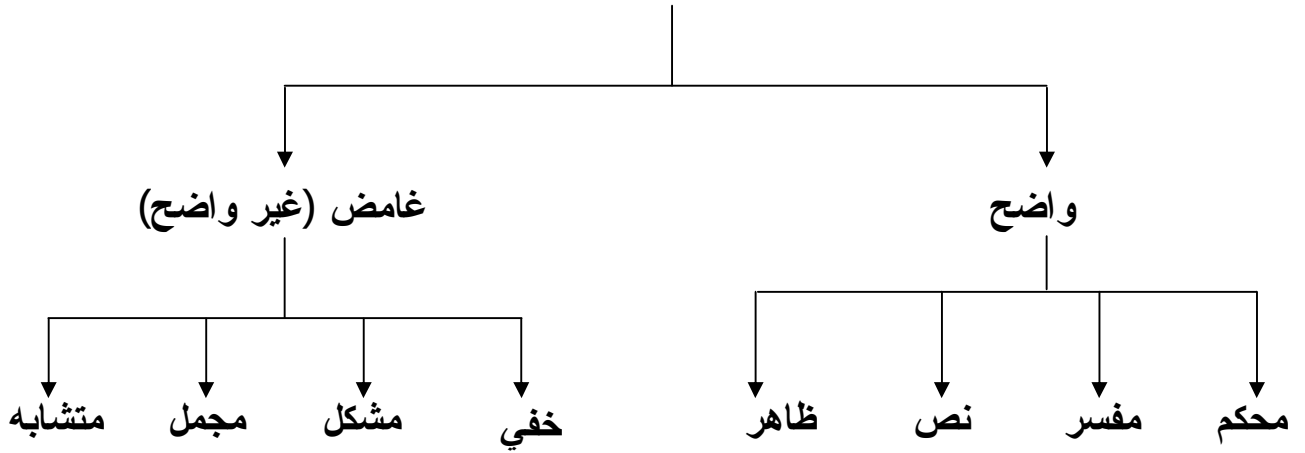


(1) ينظر: حسان تمام، اللغة العربية معناها و مبناها، ص163.



1

من حيث الوضوح و الخفاء



يتبين من خلال هذه الأشكال مدى عناية الأصوليين بعلم الدلالة لأنه كفيل بكشف المعاني بطرائق عدة، فعرفوا البيان و فسروه "على أنه" إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلي و يقع البيان بالقول و مفهوم القول و الفعل و الإقرار و الإشارة و الكتابة و القياس" ²

يتعدى السياق اللغوي الجملة إلى الفقرة، بل إلى الكتاب ككل و اللفظ عند الأصوليين يستوحي معناه تبعاً لاختلاف موقعه من السياق بدليل أن العرب تبتدئ الشيء من كلامها فيبين أول لفظها فيه عن آخره و تبتدئ الشيء فيبين آخر لفظها منه عن أوله و لعل أبرز مثال في القرآن الكريم ما تقطن إليه الإمام

¹ - عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص241.

² - المرجع نفسه، ص140.

الشافعي في تفسيره لكلمة "أحسن" الواردة في الآية الكريمة التالية : قال الله تعالى: "فَإِذَا أَحْصَيْتَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ"⁽¹⁾

أحسن في هذه الآية معناها : أسلمن لأن إحصان الأمة إسلامها و يؤكد الرسول (ص) في قوله : "إذا زنت أمة أحدكم فتيبن زناها فليجلدها" و لم يقل محصنة أو غير محصنة فتيبن أن الآية الكريمة في الإمام⁽²⁾.

لو كان المقصود من كلمة أحسن غير أسلمن، فلماذا نجد في نهاية الآية الكريمة كلمة المحصنات؟ من هنا يستحيل أن يكون معنى (أحسن) هو نفسه معنى (المحصنات) لأن المعنى لا يستقيم في هذا التفسير ثم إن كلام العرب كما ورد من قبل، يبين آخر لفظه عن أوله، فكلمة (المحصنات) هي التي جاءت في أواخر الآية فتوضح و تبين معنى كلمة (أحسن) الواردة في أول الآية الكريمة و التي معناها أسلمن و لا يقصد بها التحصن بالعفاف، إذن لم يكن بحثهم مقصورا على المعنى المعجمي للكلمة، بل عمدوا إلى إعمال السياق الاجتماعي و الثقافي و كل الملابسات المحيطة بالحدث الكلامي

إنّ السياق» هو الذي يبين المقصود من تلك الألفاظ، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض، إلّا لغرض فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه ليتخذ مدخلا إلى مراد المتكلم ، لأن الألفاظ لا تدرس لذواتها وإنما باعتبارها تابعة لقصد المتكلم وإرادته «.⁽³⁾

« فلا محيص للمتفهم لمقاصد المتكلم من رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره، وعند ذلك يحصل مقصود المتكلم في فهم الناظر « .⁽⁴⁾

« لقد اهتم الشافعي اهتماماً بالغاً في تحديد الدلالات من خلال السياق، ودعا الناظر في القرآن إلى مراعاته لأن من الألفاظ ما لا يتبين معناه إلّا من السياق ⁽⁵⁾».

(1) - سورة النساء، الآية 25.

(2) - ينظر عبيد النعيم خليل، ص242.

(3) - خليل الكبيسي، علم التفسير أصوله وقواعده، مكتبة الصحابة ، ط1، الشارقة 2007، ص171.

(4) - المرجع نفسه، ص171.

(5) - المرجع نفسه، ص171.

و يرى الإمام الشافعي أن الباحث الأصولي عليه أن يتسلح بوسائل عدة حتى يصل إلى استنباط الأحكام الصحيحة المناسبة من هذه الوسائل:

1. معرفته أن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب .
2. المعرفة بالناسخ و المنسوخ في كتاب الله.
3. معرفة الغرض في تنزيله
4. المعرفة بالموضع الذي وضع الله به نبيه من الإبانة عنه.
5. معرفة الغرض في جميع فرائضه.
6. معرفة حركات الأشخاص و إشاراتهم و إيماءاتهم.
7. معرفة البيئة العربية التي تنزل فيها القرآن الكريم و الوقوف على السمات اللغوية الخاصة للغة القرآن.⁽¹⁾ يقول السيوطي في شأن القرآن الكريم: « فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج حكم الحلال والحرام والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه والبيان يستهدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام. وفيه القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار ، هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول وتسلب القلوب وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلاّ علام الغيوب «⁽²⁾¹، فالقرآن الكريم إذن كتاب جامع مانع ارتضاه الله للبشرية منهاجاً قوياً لا تضل ما تمسكت وعملت به .

فمثلاً قول الله تعالى " ذق إنك أنت العزيز الكريم"⁽³⁾ لولا السياق ما اتضح المقصود من الآية إذ هو الذي وضحه فعرّف القارئ أن هذه الآية جاءت في معرض تذليل الكفار، يقول العز بن عبد السلام : " كل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذماً، فما كان مدحاً بالوضع فوقع في سياق الذم صار ذماً و استهزاء وتهكما بعرف الاستعمال مثاله: "ذق إنك أنت العزيز الكريم" أي الذليل المهان لوقوع ذلك في سياق

(1) - عبد النعيم، خليل ص244.

(2) - جلال الدين عبد الرحمان السيوطي ، الإتيقان في علوم القرآن، مكتبة مصر ، القاهرة 1996، ص3.

(3) - سورة الدخان، الآية 49.

الذم⁽¹⁾. ويرى ابن القيم أن السياق أفضل سبيل للوصول إلى مراد المتكلم بحيث يقول: «السياق يرشد إلى تبين المجمل و تعيين المحتمل و القطع بعدم احتمال غير المراد و تخصيص العام و تقييد المطلق و تنوع الدلالة وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره و غلط في مناظرته⁽²⁾» .

ينبىء بحوث الأصوليين عن وعي كبير بحقيقة انسجام الخطاب القرآني مع واقعه الخارجي و اتساقه في بنائه الداخلي فبالرغم من نزول القرآن منجماً إلا أنه يشكل نصاً واحداً "و يبقى لسياق الحال المرافق للنص دوره الخاص في الكشف عن طبيعة تفاعل النص مع الطرف الذي نزل فيه و بسببه و يكشف عن تفاعل النص مع المخاطبين بشكل خاص⁽³⁾ و ما ضمن هذا التفاعل الخاص هو مخاطبة الناس على قدر عقولهم و بما يفهمونه بالرغم من أنهم لم يكونوا على مستوى واحد من الفهم و الإدراك " و لم يكونوا على درجة واحدة في اتصالهم بصاحب الرسالة، فالمقربون يفهمون مضمون الرسالة و مغزاها بالإيحاء و التلميح لأن أطرهم المعرفية مشتركة، أما من كانوا أبعد ثقافياً و حضارياً فإنهم كانوا محتاجين إلى الإطناب"⁽⁴⁾ .

كما تظن الأصوليون إلى أن الألفاظ المفردة و التراكيب تتعرض بسبب السياقات اللغوية و غير اللغوية لمختلف التغيرات في الدلالة و بالتالي يستعينون بالسياق بشقيه و هذا جلي في بحوثهم عن العام و الخاص " حيث لا يراد باللفظ غالباً دلالاته على العموم و ذلك أن العموم إنما يعتمد الاستعمال و وجوه الاستعمال كثيرة ضابطها مقتضيات الأحوال⁽⁵⁾ " .

لقد قسم الغزالي أنواع الدلالة خمسة أقسام، هي:

(1) فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي، دلالة السياق و أثرها في توجيه ص 68.

(2) المرجع نفسه ، ص 66، 67.

(3) خلود العموش، الخطاب القرآني (دراسة في العلاقة بين النص و السياق)، عالم الكتب الحديث، ص 85 .

(4) المرجع نفسه، ص 104 .

(5) - عبد النعيم خليل، دلالة السياق، ص 248، 249 .

1- دلالة الاقتضاء: و هو الذي لا يدل عليه اللفظ و لكن يكون من ضرورة اللفظة كقول الرسول (ص) " لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل" (رواه الترميذي) و معناه لا صيام صحيح أو كامل فحكم الصوم هو المنفي و ليس الصوم نفسه.

2- دلالة الإشارة: تتعدى الدلالة المعجم إلى إشارة المتحدث أو حركاته و إيماءاته و يقصد بالإشارة أيضا ما يؤخذ من إشارة اللفظ لا من اللفظ ، أي قد يتبع اللفظ ما لم يقصد به و يبنى عليه⁽¹⁾.

3- دلالة التعليل: و ذلك باستنتاج علة الحكم من منطوق لا يدل عليها كقوله تعالى: " إن الأبرار لفي نعيم" ⁽²⁾ و تستنتج العلة و هي النعيم لبرهم و لم يدل كلام الله تعالى عليها مباشرة.

4- دلالة السياق: بحيث يتوصل إلى فهم غير المنطوق به من المنطوق عن طريق السياق كقول الله تعالى: « و لا تقل لهما أف و لا تنهرهما »⁽³⁾ ، يفهم من هذه الآية الكريمة تحريم شتمهما و ضربهما و كل ما يمكن أن يؤذيها بالرغم من أن الآية الكريمة لم تتطرق إلى الشتم أو الضرب إلا أن سياق الكلام يؤكد هذا التحريم.

5- دلالة المفهوم: و معناه الاستدلال بتخصيص الشيء بالذكر على نفي الحكم عما عداه و يسمى مفهوما لأنه مجرد لا يستند إلى منطوق⁽⁴⁾ كما في قول الله تعالى: « و من قتله منكم متعمدا »⁽⁵⁾ فجزاء القاتل المتعمد ينفي الحكم عن غير المتعمد لكن يبين فقط أن الحكم لا يكون نفسه للمتعمد و لغير المتعمد.

من هنا يتبين مدى اهتمام الأصوليين بالسياق و اعتمادهم عليه لا سيما فحوى الخطاب و أسباب النزول و الأخذ في الحسبان أن القرآن الكريم نص واحد و قد يفهم من عباراته معان أكثر مما تدل عليه ظواهر الألفاظ كما كانوا يعملون القصد و عرف الاستعمال لأنهم يربطون بعض الدلالات بالحقيقة العرفية أي ما تعارف عليه المجتمع و هذا عنصر من عناصر السياق الاجتماعي . فإذا كانت نظرية السياق تعتمد على اجتماعية اللغة في وصولها إلى المعنى فإن نظرة الأصوليين إلى اللغة اجتماعية أيضا

(1) - عبد النعيم خليل، ص 249 .

(2) - سورة المطففين، الآية 22.

(3) - سورة الإسراء، الآية 23.

(4) - عبد النعيم خليل، ص 250

(5) - سورة المائدة: الآية 95.

حيث ترتبط بالمجتمع الذي نشأت فيه ارتباطا وثيقا و من هنا يتضح أن الأصوليين قد أدركوا عناصر السياق المختلفة و استعانوا بها للكشف عن المعنى و تحديده و جاء حديثهم عن السياق بكل جوانبه من منطلق البحث عن الدلالة من أجل الوصول إلى الحكم الشرعي، فقد عنوا بالكلمة على مستوى اللفظ المفرد و على مستوى التركيب الذي هو أساس السياق اللغوي دون أن يغفلوا عن السياق المقامي، إنهم بهذه الطريقة لم يختلفوا مع نظرية السياق الحديثة.

ب - السياق بين اللغويين والنحاة:

بدأ النقد العربي التراثي من النحو واللغة وحاول اللغويون والنحاة أن يصبغوا النقد بصبغتهم المعيارية من حيث دلالة اللفظ أو شكل التركيب ومن حيث التصوير بالمجاز» ولما بدا اللحن في الإعراب استتبعت القوانين لحفظ اللغة حتى أُطلق على النحو علم العربية «⁽¹⁾ ولذلك كان هؤلاء العلماء (اللغويون والنحاة) قد أولوا كل ما خرج عن القاعدة المعيارية كقول الشاعر

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

الملاحظ في هذا البيت الشعري أن المعطوف قد تقدم (عليك ورحمة الله السلام) وهذا لا يجيزه النحويون إلا للضرورة الشعرية لكن بالرغم من ذلك يظل هذا البيت بسبب هذه الضرورة الشعرية موصوفاً بالقبح لأنه عدل عن النمط العادي للشعر والقواعد النحوية إلا أن فريقاً من النقاد ينظرون إلى الشعر نظرة أخرى بحيث يرون وجوب تجاوز اللغة المعيارية والقواعد المقيدة في الشعر « لأن اللغة الشعرية لغة محررة تتكيف مع غاية جمالية حتى لو أدى ذلك إلى الخروج عن المعايير اللغوية والنحوية »⁽²⁾ لأن غاية النقد العربي توصيل الشاعر معناه إلى المتلقي بطريقة تطابق مقتضى الحال وكل الظروف والملابسات التي تلتصق بالسياق إنما هي لتحقيق التأثير في المتلقي لذا فالتغيرات التي تطرأ على الشكل هدفها توصيل المعنى وتحقيق التأثير.

إن النظام اللغوي يقتضى وجود عناصر يجمعها إسناد ظاهر أو مقدر، لكن التطبيق اللغوي قد يعتمد على دلالة السياق اللغوي والسياق غير اللغوي⁽³⁾ ولقد تفتن النحويون إلى أثر الحذف في الدلالة واتصال هذا الأثر بطبيعة المبدع أحياناً وبطبيعة المتلقي أحياناً أخرى، وأشاروا أيضاً إلى وجود سياق بارز للحذف عند ذكر الديار في بيت "ذي الرمة" الذي يقول فيه

ديار مية إذ مي مساعفة ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

(1) - محمود محمد عيسى، السياق الأدبي (دراسة نقدية تطبيقية)، ص91.

(2) - المرجع نفسه ، ص91.

(3) - ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، ص45.

تم الحذف قبل كلمة "ديار" لأنه أصبح الحذف في وقوفهم على الأطلال كمثل نظرا لشيوع ذلك فكأن الشاعر في هذا البيت أراد: "أذكر ديار مية" لكن حذف "أذكر" لكثرة استعمال ذلك في كلام العرب وبمعنى آخر جرت العادة في كلام العرب حين يرتبط بالطلال أن يذكره مباشرة طبقاً لتلك العادة وشيوع الاستعمال إلا أن من العرب من يرفع كلمة "الديار" وفي هذه الحالة يقدر الحذف بـ (تلك) كأن الشاعر يقول: تلك ديار مية .

قال ابن جني: « قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه وإلا كان فيه ضربٌ من تكليف علم الغيب في معرفته »¹ .

ومعنى هذا الكلام أن الحذف إنما كان لقريضة من سياق النص أو الموقف ويتجلى ذلك مثلاً في قول الله تعالى: « والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات »²

كان يمكن أن يقال والحافظات فروجهن والذاكرات الله كثيراً إلا أنه حذف لكون الآية تحمل في طياتها معنى الكلام المحذوف ومنه قول قيس بن الخطيم:

نحن بما عندنا وأنت بما

عندك راض والرأي مختلف

وقول " ضابئ بن الحارث البرجمي " :

ومن يك أمس بالمدينة رحله

فإني وقيارا بها لغريب

إن سياق النص أغنى عن المحذوف إذ يقصد الشاعر في البيت الأول (نحن بما عندنا راضون) ولكن لم يفصح عن هذا كله بل حذف لأن السياق دل عليه وكذلك في البيت الشعري الثاني قد حذف منه

¹ - أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص، ج2 تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، القاهرة

1987، ص362.

² - سورة الأحزاب، الآية 35.

ما يفسره السياق وتقديره وقياراً كذلك ⁽¹⁾ وهذا غير بعيد عن قول الله تعالى: « والله ورسوله أحق أن يرضوه » ⁽²⁾ أي والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك .

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة

اعتاد قلبك من سلمى عوائده

وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواء أذاع المعصرات به

وكل حيران سار مأوه خضل ⁽³⁾

قال: أراد ذاك ربع قواء أو هو ربع، فحذف هو أو ذاك لتعودهم على ذلك.

ومنه قول الشاعر :

قال لي كيف أنت؟ قلت عليل

سهر دائم وحزن طويل

هنا انسحقت ذات الشاعر داخل لفظة عليل كأن سائله فجر ألمه بسؤاله فبين علتة وآهاته التي أمحت ذاته، إن مهمة الحذف الفنية تكمن في فتح المجال أمام المتلقي لاستحضار معان غائبة تنتج في فضاء العبارة ⁽⁴⁾ .

يأتي كذلك الحذف إذا وقع الكلام جواباً عن سؤال كقول الله تعالى: « لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ⁽⁵⁾ أي الله هو خالق السموات والأرض حذفت هذه الجملة لدلالة السياق عليها.

(1) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر 2007، ص90.

(2) - سورة التوبة، الآية 62.

(3) - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص107.

(4) - المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، ص98.

(5) - سورة لقمان، الآية 25.

يكون الحذف كذلك لبعض أجزاء التركيب كلما تيسر ذلك من أجل بروز المعنى وحده دون وساطة والأمثلة عن هذا النوع كثيرة منها ما ورد في كلام الرسول (ص) بحيث حذف أثناء الحوار جملاً من ذلك» ما روي عن أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله إنّ الأنصار قد فضلوا بأنهم أووا ونصروا وفعلوا وفعلوا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: أتعرفون ذلك لهم؟ قالوا: نعم، قال: فإنّ ذاك «⁽¹⁾، هذا ما قاله الرسول (ص) ردّاً على تساؤلات المهاجرين ومعنى جواب الرسول (ص) أن ذاك شكرٌ ومكافأةٌ، ولم يألّف النحاة حذف الخبر على هذا الشكل فقدروه بشكر ومكافأة بيد و اعتمدوا في التّقييد للنحو على الكلام المستعمل.

روي كذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه لما تلقى رسالة من أبي عبيدة في أمر الطاعون قرأها واسترجع « فقال المسلمون: مات أبو عبيدة؟ قال: لا وكأنّ قد. فجملة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي لخصت للمستمعين وعبرت لهم عن خطورة الأخبار التي تحملها الرسالة ليست مكونة إلاّ من حروف «⁽²⁾ ولقد أغنت هذه الحروف عن المحذوف فرب كلمة تغني عن خطبة وتتوب عن رسالة. كذلك قول الله تعالى: "أمن هو قانت أثناء الليل ساجدا و قائما"⁽³⁾ و لم يذكر بعدها شيئاً لأن في قوله تعالى: " قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون" ⁽⁴⁾ دليلاً على ما أراد. ⁽⁵⁾ و هنا يتبين أن الآية الكريمة الثانية تكمل و توضح سابقتها و هذا هو السياق بعينه إذ من بين معاني السياق أن تفهم العبارة بما سبقها أو بما لحقها أو بكليهما.

و قوله كذلك جل جلاله: " و لو لا فضل الله عليكم و رحمته و أن الله رؤوف رحيم" ⁽⁶⁾ أراد: لعذبكم، لكن لم يذكر بسبب وضوحه من خلال سياق معنى الآية الكريمة و قريب من هذا المعنى قول الشاعر

(1) - محمد صغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص269.

(2) - المرجع نفسه، ص269.

(3) - سورة الزمر، الآية: 8

(4) - سورة الزمر الآية: 9

(5) - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة و الشعر) منشورات المكتبة العصرية، بيروت،

1986 ص182

(6) - سورة النور الآية 20.

فأقسم لو شيء أتنا رسوله سواك و لكن لم نجد لك مدفعا

و أراد: لو شيء أتنا رسوله سواك لرددناه.⁽¹⁾

كان سيبويه و قبله الخليل يستعين بالسياق اللغوي بكثرة في بيان أحد العناصر المحذوفة في التركيب منه الاستغناء عن تكرار كلمة "كل" في قول الشاعر

أكل امرئ تحسبين امرأ و نار توقد بالليل نارا

جرت كلمة (نار) لأنّ التقدير (و كل نار) ولأنّ سياق الكلام يغني عن المحذوف و الكلام واضح عند المخاطب و لا يشوبه أي لبس، صف إلى ذلك أن كلمة "كل" في صدر البيت تحيل إلى ورود معنى "كل" في عجز البيت، فذكر "كل" الأولى منعت اللبس عن المخاطب و أدرك ما معناه (و كل نار) و أكثر من ذلك فلقد نصبت الكلمة الأخيرة من عجز البيت (نارا) بالفعل المتعدي إلى مفعولين (تحسبين) لكنه لم يذكر في عجز البيت و أراد: و تحسبين كل نار توقد بالليل نارا و هذا كله حذف جيد حسب أبي هلال العسكري الذي يورد في مصنفه كتاب الصناعتين نماذج للحذف الرديء منها قول الحارث بن حنظلة

و العيش خير في ظلال و النوك ممن عاش كدا

أراد : و العيش الناعم خير في ظلال النوك (الحق) من العيش الشاق في ظلال العقل و ليس يدل لحن كلامه على هذا فهو من الإيجاز المقصر عند أبي هلال العسكري⁽²⁾ و عده قدامه بن جعفر من الإخلال و هو من عيوب ائتلاف اللفظ و المعنى⁽³⁾

و مثله قول عروة بن الورد

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم و مقتلهم عند الوغى كان أعذر

و يعني إذ يقتلون نفوسهم في السلم⁽⁴⁾ لكن الحذف في هذا البيت الشعري ليس من النوع الرديء لأن عجز البيت و تماما كلمة الوغى تفسر المقصود في صدر البيت و لا أرى في ذلك عيبا لأن

(1) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين 182.

(2) - المرجع نفسه، ص188.

(3) - أبو الفرج قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة 1979، ص217.

(4) - أبو هلال العسكري، ص188

اللاحق قد فسر السابق و هذا كثير الورود في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وفي كثير من الشعر، أما البيتان المواليان ففيهما الحذف الرديء قال شاعر

لا يرمضون إذا جرت مشافرهـم

و لا ترى مثلهم في الطعن ميالا

و يفشلون إذا نادى ربئهم

ألا اركبن فقد أنست أبطالا

وأراد في البيت الثاني أن يقول : ولا يفشلون لكن حذف (لا) فصار المعنى كأنه ذم⁽¹⁾

من مظاهر الخروج عن القاعدة المعيارية و النسق لأغراض فنية، التقديم و التأخير فلقد أولى النحويون عناية كبيرة لترتيب العناصر اللغوية في التركيب لما له من دلالات، فأجازوا للتركيب الأصلي أن يتبادل عناصره المواقع فيما بينها فيتقدم ما حقه التأخير و يتأخر ما حقه التقديم و تكمن قيمة هذا الإجراء الفنية بحسب توظيف المبدع له داخل السياق، يقول فيه عبد القاهر الجرجاني "كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعة و يفضي بك إلى لطيفة، و لا تزال ترى شعرا يروك مسمعه و يلطف لديك موقعه ثم تنتظر فتجد سبب أن راقك و لطف عندك أن قدم فيه شيء و حول اللفظ عن مكان إلى مكان"⁽²⁾

من التقديم الذي ينطوي على أسرار بلاغية قوله تعالى: "و الذين هم بربهم لا يشركون"⁽³⁾ فالتقديم في هذه الآية الكريمة يؤكد نفي الإشراك عنهم نفيا قطعيا، ولو لم يتم التقديم لكان (و الذين لا يشركون بربهم) نلاحظ أن هذه العبارة لا تحمل في طياتها توكيدا و ليست مفخمة مقارنة بتعبير الآية الكريمة، و كذلك يتبين أن تقديم (ربهم) في هذه الآية كأن فيه وصفا للمؤمنين الصادقين و يفهم من سياق الآية الكريمة أنه يقصد : بربهم لا يشركون أبدا.

(1) - أبو هلال العسكري، ص189.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 85، 86

(3) سورة المؤمنون: الآية 59

أما قوله تعالى: "ثم الجحيم صلوه" ⁽¹⁾ يعتقد أن سبب التقديم إنما جاء إتباعا للسجع لأن ما قبل هذه الآية ورد على النمط نفسه أي كلام مسجوع و لكن بالرغم من عدم جحود القيمة الفنية للسجع في هذه الآيات الكريمة إلا أن حصر التقديم في هذا الجانب فقط مغالطة فالتقديم هنا له غرض الاختصاص و التأثير في النفس في سرعة بيان المصير السيئ الذي يترتب على هذا الذي أخذ فعل ⁽²⁾ و يعتقد النحاة أن هذا التقديم عربي جيد بل كثير لأنهم لا يقدمون شيئا عبثا إنما إن قدموا فلأنهم أدركوا أن بيانه أهم و أعنى ناهيك عن اكتسابهم بهذا النمط ضربا من التوسع في الكلام، و منه ما قاله ابن المعتز

سالت عليه شعاب الحي حين دعا

أنصاره بوجوه كالدنانير

يقول عبد القاهر الجرجاني في شأن هذا البيت: "فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها و غرابتها إنما تم لها الحسن، و انتهى إلى حيث انتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم و التأخير" ⁽³⁾ يريد أن هذا البيت لو شكل بطريقة أخرى كـ: سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، ما كانت له تلك الحلاوة و ذلك الحسن، بمعنى آخر يُقرُّ عبد القاهر الجرجاني أن التقديم و التأخير هنا هما سر روعة البيت و لا يعود الفضل فقط للاستعارة التي وظفها الشاعر فيه

أما قول الله تعالى: "و اشتعل الرأس شيئا" ⁽⁴⁾

فإن عبد القاهر الجرجاني يعقب: "أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى "و اشتعل الرأس شيئا" لم يزدوا فيه عن ذكر الاستعارة و لم ينسبوا الشرف إلا إليها" ⁽⁵⁾ يتساءل في هذا الصدد لو جاءت الجملة (اشتعل شيب الرأس) هل تجد ذلك الحسن و تلك الفخامة و هل ترى الروعة التي كنت تراها؟ و يريد أن للتقديم و التأخير اللذين وقعا في هذه العبارة فضلا في دخول الروعة على النفوس لمجرد سماعها قبل أن تعي بأن بها استعارة و منه كذلك قوله تعالى: "و فجرنا الأرض عيونا" ⁽⁶⁾

(1) سورة الحاقة، الآية 31.

(2) ينظر: المهدي ابراهيم الغويل، السياق و أثره في المعنى، ص 95.

(3) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 81، 82.

(4) سورة مريم، الآية 4 .

(5) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 82 .

(6) سورة القمر، الآية 12.

إن النحاة و اللغويين القدامى يدركون تمام الإدراك أن عناصر الخطاب متكاملة "يتبدى عنصر الإبلّاغ فيه كملحظ أساسي في قبول الجمل أو عدم قبولها فتصبح فائدة المخاطب في صياغة الجملة أو العبارة" (1) لأن ثمة فرقا شاسعا في أسلوب خطابك وفقا لمنزلة المخاطب، فإنك حين تحدث خليفة أو ملكا فذاك الحديث يقتضي أسلوبا خاصا فلا تقل للخليفة آمرك أن تنتظر في أمري بل أسألك أليق كما وقف النحاة عند حقيقة المتكلم و حاله و قد يكون من حال المتكلم حركة يديه و وجهه و هيئته بكاملها قال ابن جني في البيت الشعري الذي قاله نعيم بن الحارث بن يزيد السعدي تقول:

قالت وصكت وجهها بيمينها

أبلي هذا بالرحى المتقاعس

"قلو قال حاكيا عنها: أبلي هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكر صك الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكورة، لكنه لما حكى الحال فقال: (وصكت وجهها) علم بذلك قوة إنكارها و تعاضم الصورة لها" (2) و قال في هذا الصدد أيضا « رب إشارة أبلغ من عبارة » و ليس المخبر كالمعاين ثم انتهى ابن جني "إلى أنه لو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئا عنه لما تكلف القائل و لا كلف صاحبه الإقبال عليه و الإصغاء إليه" (3)

و منه قول الشاعر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو ود إذا كانا

و لا غرابة أن يستشهد ابن جني بقول مشايخه في موضوع ذي صلة بمشاهدة الوجوه.

"حيث قال، قال بعض مشايخنا رحمه الله: "أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة" (4)

هذا الكلام كله استحضار لما لتأثير عناصر السياق المقامي في استعمال اللغة في مواقف الخطاب و ما يصاحبها من حركة اليدين أو إيماءات الوجه أو دفقات المشاعر المتمثلة في دمة و ابتسامة .

(1) خلود العموش، الخطاب القرآني (دراسة العلاقة بين النص و السياق)، ص43.

(2) ابن جني، الخصائص، ج1، ص246.

(3) المرجع نفسه، ص 248.

(4) المرجع نفسه، ص248.

يمثل الاختيار الثقافي المشترك عند اللغويين و النحويين ملحظاً إضافياً في ضبط قواعدهم فقد يعتمدون عليه للاستغناء عن مرجع الضمير بالعرف المتحصل لدى أبناء اللغة، كما في قول الله تعالى: "إنا أنزلناه" (سورة القدر، الآية 1). أي القرآن و قوله تعالى: "حتى توارت بالحجاب"(سورة ص، الآية 32) أي الشمس، و هذا النوع كثير، و قريب من هذا ما قرره سيبويه من "أنه لا يجوز القول: الحمد لزيد فإنه ليس كل شيء من الكلام يكون تعظيماً لله عزوجل يكون تعظيماً لغيره من المخلوقين" (1)

كما عني اللغويون بلمّ المعاني التي يجمعها حقل دلالي واحد في صعيد واحد مع تبيان الفروق الطفيفة بينها مثل القول في العبوس "إذا زوى ما بين عيني الرجل فهو قاطب و عابس، فإذا كثر عن أنيابه مع العبوس فهو كالح، فإذا زاد عبوسه فهو باسر و مكفهر، فإذا كان عبوسه من الهم فهو ساهم فإذا كان عبوسه من الغيظ، و كان مع ذلك منتفخاً فهو مبرطم" (2) ... و هنا يتبين كيف أن تقاطيع الوجه و حركاته و الحالة النفسية للشخص لها علاقة بالدلالات و الألفاظ المستخدمة في الوصف، و أكثر من هذا فقد صنفوا الألفاظ في زمر و مجموعات على أساس سياقي كالمترادف و الأضداد و المشترك اللفظي و احتكموا إلى السياق في التدقيق بين الدلالات. وفي الصرف انتبهوا إلى مجيئ بعض الأبنية متحدة الوزن، مختلفة الدلالة وما الذي يحدد هذه الدلالة غير السياق مثل اسم الزمان واسم المكان لأنهما يصاغان من الفعل الثلاثي على وزن (مُفْعَلٌ) بفتح العين إذا كان مضارعه مفتوح أو مضموم العين

ذهب ← يذهب ← مذهب

نحو ← كتب ← يكتب ← مكتب

فإذا قلنا مطلع الشمس جميل هل نقصد بمطلع الشمس زمانه أم مكانه؟ يتدخل هنا السياق ليحدد المراد و يعين المقصود و كذلك الأمر في الأسماء المنسوبة و غير المنسوبة: نحو كرسي زنجي شافعي، السياق هو الكفيل بالتمييز بين هذه الأسماء و تحديد المنسوبة و غير المنسوبة. (3) من هنا تتجلى قيمة السياق اللغوي كيف أنه لا يمكن الاستغناء عنه لأنه يمنع اللبس في كثير من العبارات والكلمات.

(1) - ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، ص44.

(2) - المرجع نفسه، ص52.

(3) - www.Kam.edu.sa/files/372/researches/854

ج - السياق عند البلاغيين

ناقش البلاغيون فكرة المقام من خلال المقولة المأثورة " لكل مقام مقال " حيث ترتبط هذه الفكرة ارتباطاً بالمقام والمقال عند السياقيين ولها نياط وثيقة بالأسلوب لأنه يخرج عن معناه الأصلي إلى ما يقتضيه السياق . إن من الأوائل الذين تحدثوا عن فكرة المقام عند البلاغيين عبد الله بن المقفع أثناء تعريفه لمعنى البلاغة حيث قال: «البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل، فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل و الإطالة في غير إملال وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته فقل له فإن ملّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف قال: إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو»⁽¹⁾

بالعودة إلى مقولة ابن المقفع يتبين مدى إشارته إلى السياق، حين يتحدث عن وجود موضوعات تحتاج إلى إطالة وأخرى في حاجة ماسة إلى الإيجاز ثم تطرق إلى الإشارة التي تعد من عناصر السياق غير اللغوي أي هي بعض ما يصاحب الحدث الكلامي حسب السياقيين. كما لم يغفل عن دور المتلقي وكأنه يشترط على المتكلم أن يأخذ في الحسبان أثناء خطابه هذا المتلقي ، فلا يُطلّ عليه حتى يملّ ولكن من جهة أخرى يحدد صفة هذا المتلقي فيحرّده من العداوة، وانتهى إلى أن البلاغة شديدة الارتباط بالمعنى وهذا ما ارتكز عليه الدرس اللغوي العربي في موضوع السياق. يذهب أبو الهلال العسكري إلى أن «البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة

(1) - الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج-1، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت (د.ت.)،

ومعرض حسن.»⁽¹⁾ أما أَلْعَتَابِي فيرى حسب أبي هلال العسكري «أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ»⁽²⁾ لكن العسكري بين وقيده هذا المعنى بالحسن حيث قال «إنما عنى العتابي : إن أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة والعبارة النيرة فهو بليغ»⁽³⁾ ومن هنا يتضح أنه ربط بين الدلالة والجمال حيث قال « جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة»⁽⁴⁾ لذا هنا ينبغي للبليغ التوسع في معرفة العربية ووجوه الاستعمال لها والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها ومتخيرها ورديئها ومعرفة المقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام»⁽⁵⁾

يلاحظ على نقده أنه يحدد بدقة أدوات البليغ فلا يكفي توسعه في العربية إن لم يصف إليها تحكمه في وجوه الاستعمال أي اللغة في سياقاتها المختلفة ولا يكفي حسن اختيار الألفاظ والتمييز بينها ما لم يعرف المقامات ولا ريب أن المقصود بالمقام ها هنا هو جميع الملابس والظروف المحيطة بالحدث الكلامي. كانت فكرة المقام في لب أعمال البلاغيين فقد عنوا بحال المتخاطبين وظروف الخطاب أشار العسكري إلى هذه النقطة بقوله: «ومكاتبه كل فريق منهم على قدر طبقتهم وقوتهم في المنطق»⁽⁶⁾ وأبرز دليل على ذلك ما أورده عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه «لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس، كتب إليهم بما يمكن ترجمته فسهل الألفاظ حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله»⁽⁷⁾ ومن هنا فمقياس الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق به أي مقتضى الحال «فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الحكم تحلية الشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة»⁽⁸⁾ وغير بعيد عن هذا المعنى قال الخطيب القزويني: «بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام متفاوتة، فمقام التكرير مباين لمقام التعريف... ومقام

(1) - أبو هلال العسكري، كتاب الصاغيين، ص 10

(2) - المرجع نفسه، ص 11.

(3) - المرجع نفسه، ص 10.

(4) - المرجع نفسه، ص 10.

(5) - المرجع نفسه، ص 21.

(6) - المرجع نفسه، ص 154.

(7) - المرجع نفسه، ص 154-155.

(8) - ينظر: خلود عموش، الخطاب القرآني، ص 54.

التقديم مباين لمقام التأخير ومقام الذكر مباين لمقام الحذف وكذا خطاب الذكي مباين لخطاب الغبي»⁽¹⁾ وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه عبد القاهر الجرجاني بالنظم⁽²⁾ ، ويرى السكاكي الشيء نفسه بيد أنه يزيد عن ذلك حيث يقول: « ومقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار »⁽³⁾ ، ويتوسع في هذا المعنى أكثر حين يقول: « ثم إذا شرعت في الكلام فكل كلمة مع صاحبها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق به هو الذي نسميه مقتضى الحال »⁽⁴⁾

إنّ البليغ من «يتخير اللفظ فلا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوق ويكون في قواه التصرف في كل طبقة»⁽⁵⁾ وأن يسعى «لإفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على قدر منازلهم»⁽⁶⁾ وما أقبح شاعر لا يراعي مقتضى الحال فمهما يكن كلامه حسنا معتدلاً يتسم بالجودة وبالألفاظ الجزيلة إلا أنه إن لم يراع صاحب مقام إلقاءه قد لا يؤدي دوره المنتظر فيعود عليه وبالا ومما روي في هذا الشأن ما أورده المرزباني في الموشح حيث قال: أخبرني محمد بن أبي الأزهر قال حدثنا محمد بن يزيد النحوي، قال: " حدثت في إسناد متصل أن أبا النجم العجلي أنشد هشاماً والشمس صارت كعين الأحوال وذهب عنه الروي في الفكر في عين هشام، فأغضبه فأمر به فطرد... وكان هشام أحول»⁽⁷⁾ أما أرطاة حين دخل على عبد الملك بن مروان سأله: ما بقي من شعرك يا ابن سهية؟ رد عليه أرطاة: والله ما أشرب ولا أطرب ولا أعضب ولا يجيئ الشعر إلا على مثل هذه الحال فأنشده⁽⁸⁾

كأكل كل الأرض ساقطة الحديد.

رأيت المرء تأكله الليالي

على نفس ابن آدم من مزيد

وما تبغي المنية حتى تأتي

(1) - الخطيب القزويني، الاضاح في علم البلاغة ص16.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص17.

(3) - أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص73.

(4) - المرجع نفسه، ص73.

(5) - أبو هلال العسكري، ص19.

(6) - المرجع نفسه، ص20.

(7) - أبو عبيد الله، المرزباني، الموشح ، تج علي محمد البجاوي ، دار النهضة ، القاهرة 1965، ص335.

(8) - المرجع نفسه، ص377، 378.

فارتاع عبد الملك لأنه كان يكني "أبو الوليد"، وتغير وجهه وظن أنه يعنيه فقال له: لا ترع يا أمير المؤمنين إني لم أعنك ، وإنما عنيت نفسي أنا أبو الوليد، وكان يكني هو أيضا بأبي الوليد فقال عبد الملك: وأنا أيضا ستكر علي المنية حتى تذهب بنفسي وكان قد أتت عليه عشرون ومائة سنة وقال بعضهم: ثلاثون ومائة سنة إذن عابوا على أرطاة عدم مراعاته للمقام وإلا ما تجرأ بهذه الأبيات التي تذكر أبا الوليد الملك وتقرب له ساعة الحق وهو شيخ هرم. كان يجب الأخذ بالحسبان المقام لأن « مدار سياسة البيان على التوصيل والتأثير بوضوح، ومراعاة للجو النفسي والشعوري والحضاري للمتلقي، على أن يكون التوصيل في أيسر طرائقه من حيث الصياغة وائتلاف المعنى والأقته وقبوله والإنتناس به » (1)

أما قدامة بن جعفر فقد أشار في أثناء حديثه عن المدح إلى أنه يختلف بحسب الممدوح ومرتبته يقول: «أما مدح ذوي الصناعات فأن يمدح الوزير والكاتب بما يليق بالفكرة والرؤية وحسن التنفيذ والسياسة.. وأما مدح القائد فيما يجانس البأس والنجدة ويدخل في باب الشدة والبطش والبسالة... وأما مدح السوق من البادية والحاضرة فينقسم بحسب انقسام السوق الى المتعيشين بأصناف الحرف و ضروب المكاسب و إلى الصعاليك والخراب والمتلصصة ومن جرى مجراهم» (2) وذهب الجاحظ إلى أن أصناف الدلالات عن المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة « أولها اللفظ، ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبه» ومن بين هذه الأصناف يبرز صنفان يناسبان تماما موضوع السياق وهما: الإشارة والنسبة لما لهما من علاقات وطيدة بالمقام فأما الإشارة فباليد و بالرأس وبالعين وال حاجب والمنكب أما علاقتها باللفظ فهي عونه وترجمانه وكثير ما تتوب عنه لذا يقال رب إشارة خير من عبارة وقد قال شاعر في دلالات الإشارة :

إشارة مذعور ولم تتكلم

أشارت بطرف العين خيفة أهلها

أهلا وسهلا بالحبيب المتيم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا

(3)

(1) - محمد بركات حمدي أبو علي، كيف نقرأ تراثا البلاغي، دار وائل للنشر والتوزيع ، ط1، عمان 1999، ص123.

(2) - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص84-85.

(3) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص77.

وقال آخر⁽¹⁾

وللقب على القلب دليل حين يلقاه
وفي الناس من الناس مقاييس وأشباه
وفي العين غنى للمر ء أن تنطق أفواه

وفي المعنى نفسه⁽²⁾

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من ودّ أو بغض إذا كانا
والعين تنطق والافواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

من هنا قد تبلغ الإشارة ما لا يبلغه اللفظ وهي حين تكون مصاحبة للحدث الكلامي توضحه أكثر وتؤكد وتنبؤ عنه إن عجز عن إفهام السامع، و البيت الشعري الذي أورده ابن جني في مؤلفه الخصائص قرينة لقيمة الإشارة.

تقول وصكت وجهها بيمينها أبلي هذا بالرحى المتقاعس!

فلو لم يذكر الشاعر (وصكت وجهها بيمينها) ما علم بذلك قوة إنكارها و تعاضم الصورة لها⁽³⁾

يؤكد الجاحظ قيمة الإشارة حين يقول " و حسن الإشارة باليد و الرأس من تمام حسن البيان باللسان "⁽⁴⁾ لذا يتبين أكثر ما لهيئة المتكلم من خلال حركات جسمه أو يديه أو عينيه إذا صاحبت اللفظ من دلالات ، فقد تكون الإشارة جزءا من اللفظ أو عوضا عنه فهي إذن من جزئيات هيئة المتكلم التي تعد بدورها عنصرا من عناصر سياق الموقف.

" أما النصفة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ و المشيرة بغير اليد و ذلك ظاهر في خلق السماوات و الأرض و في كل صامت و ناطق....فالصامت ناطق من جهة الدلالة لذا قال الفضل بن عيسى بن أيان " سل الأرض فقل من شق أنهارك، و غرس أشجارك، و جنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك

(1) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص77.

(2) - المرجع نفسه، ص78.

(3) - أين جني، الخصائص ، ج1، ص 246

(4) - الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج1 ، ص 79 .

اعتباراً⁽¹⁾ ، إنّ الأشياء تقوم مقام الكلمات في الإبانة عن ذواتها و هي تعبير دقيق لسياق الحال بكل تفاصيله و أثره في تدقيق الوصف للحدث الكلامي.

أما المقال الذي يعد بمثابة السياق اللغوي فقد أولى البلاغيون له عناية خاصة بدليل أن عبد القاهر الجرجاني ربط فصاحة الكلمة بسياقها اللغوي و التركيب الذي قيلت فيه حيث يقول " و جملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظه مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه و لكنها نوجبها لها موصولة بغيرها و معلقا معناها بمعنى ما يليها⁽²⁾ " .

و هذا هو السياق المقالي و منه ما أثاره بعض البلاغيين عن أثر السياق في صياغة الحدث الكلامي بحيث تحدثوا عن " موضوع الزيادة و هذه الزيادة لها مقامات تستمد قوامها من مناسباتها نحو قول موسى عليه السلام " رب اشرح لي صدري"⁽³⁾ بزيادة لي لاكتساء الكلام معها من تأكيد الطلب لانشرح الصدر ما لا يكون بدونه⁽⁴⁾ " لكن إضافة (لي) في الآية الكريمة " رب اشرح لي صدري" بالرغم مما تحمله من تأكيد في ثنائياها إلا أن المعنى من زيادة (لي) هو طلب سيدنا موسى عليه السلام من الله عز وجل أن يخصه هو دون غيره أو كأن الكلام بينهما مناجاة فتوسل إلى الله أن يلبي رغبته دون علم أحد، و إلا لكان القول " رب اشرح صدري و يكون كافيا لأداء الوظيفة التبليغية " .

أما من جهة المقام فقد عنوا بحال المخاطبين و خصائص الخطاب " فإن سبيل ما يكتب به في باب الشكر ألا يقع فيه إسهاب....و سبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف و مسألة النظراء ألا يكثر من شكاية الحال و رقتها...بل يجب أن يجعل الشكاية ممزوجة بالشكر و الاعتراف بشمول النعمة و توفير العائدة⁽⁵⁾ " من خلال هذه المقولة يتضح أن البلاغيين قد أشاروا إلى العلاقة بين المشتركين في الخطاب ، فهذه العلاقة تحدد نوع الخطاب و تبين خصائصه كأن لا يسهب الكاتب في الشكر و أن لا يتقدم بالشكاية إلا ممزوجة بالشكر موحية إلى شمول النعمة، لكن ينبغي أن يعتمد على الإيجاز في كل هذه الحالات و يتجنب الإطالة فلقد قيل: إن الإكثار يورث الإملال وقلما ينجو صاحبه من

(1) - الجاحظ ، البيان و التبیین ، ج1، ص 81 .

(2) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص261 .

(3) - سورة طه، الآية 25.

(4) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين ، ص 157، 158

(5) - خلو ديموش ، الخطاب القرآني ، ص59

الزلل و العيب و الخضل⁽¹⁾ " إن هذه الخصائص تسطر للكاتب السمت الذي ينبغي له أن يتبعه في مختلف أعماله.

يخطئ من يظن أن البلاغيين قد نأوا عن فكرة المقام، كما يراها أصحاب النظرية السياقية، إذ المقام عند الغربيين هو ما يعين على فهم الحدث اللغوي، و يساعد على إبراز المعنى سواء ما اتصل بالسامع أو المتكلم أو علاقة كل منهما بالآخر أو الأشخاص الآخرين المشتركين في الكلام أو حتى غير المشتركين، الزمان و المكان الذي يتصل بالحدث اللغوي، و كل الظروف الاجتماعية و البيئية و النفسية و الثقافية للمشاركين في الكلام و لئن كان المقام عند اللغويين الغربيين على ما ذكر آنفا فإن المقام عند البلاغيين العرب كذلك يدعم الحدث اللغوي و يعمل على إبراز المعنى لأنه يبين حالتي المتكلم و السامع و كل المشتركين في الكلام كما يحدد الزمان و المكان و يشير إلى جميع الظروف و الملابسات المحيطة بالحدث الكلامي و هذا ما يستخلص من قراءة متأنية لمختلف مقولاتهم بدءا بما ذكره عبد الله بن المقفع من أن المقام يحدد الموضوع الذي يتحدث فيه المتكلم و أسلوب الكلام بحسب السامع و الإطالة أو الإيجاز بحسب الموضوع و السامع و المشتركين في الكلام كخطبة النكاح فمقامها يقتضي الإطالة

أشار ابن المقفع إلى دور الإشارة في توضيح المعنى و هي تدخل في باب المقام و هذا ما أكده الجاحظ و أضاف إلى ذلك النصبة التي لا تعد إلا الظروف و البيئة المحيطة بالحدث الكلامي قال: « المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة و كذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، و إنما مدار الشرف على الصواب و إحراز المنفعة مع موافقة الحال و ما يجب لكل مقام من المقال⁽²⁾ » لا يقصد بالنصبة ذلك المكان الحسي و لكن ما يحويه أي مكان من رموز و ليس مجرد مكان يلقي فيه الكلام بل قد يكون إطارا اجتماعيا لأن "أحوال المخاطبين تشتمل جميع الظروف التي يتأثرون بها و تشكل أمزجتهم و اتجاهاتهم كتحديد البيئة التي يسكنونها و حالة المناخ السائد فيها و نوع المهنة التي يشتغلون بها و أحوالهم المعيشية و السياسية التي يخضعون لها و المذاهب التي يعتنقونها و جميع الظواهر الاجتماعية التي تؤثر في أجسام الناس و عقولهم"⁽³⁾ و أشار السكاكي في (مفتاح العلوم) إلى المخاطبين و الملابسات المحيطة بالخطاب - كما ذكرها السياقيون الغربيون - حين تحدث عن الحقل المعجمي الذي يوظفه المخاطب فهو لا يخرج عن خلفياته الاجتماعية و الثقافية، يقول السكاكي في هذا

(1) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين ص 21.

(2) - الجاحظ ، البيان و لتبيين، ج1، ص 132 .

(3) - [http:// boumans.ouraeducation.ahla.mountada.com/e219-topic](http://boumans.ouraeducation.ahla.mountada.com/e219-topic)

المعنى: "و لصاحب علم المعاني فضل احتياج في هذا الفن إلى التنبه لأنواع هذا الجامع و التيقظ لها و يمثل لذلك بقول الله تعالى: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت و إلى السماء كيف رفعت و إلى الجبال كيف نصبت و إلى الأرض كيف سطحت" (1) فالسؤال الملح هنا على أي أساس تم الجمع بين الإبل السماء، الجبال و الأرض؟ لكن بوضع الآية الكريمة في إطارها الزماني و المكاني و بمعرفة حياة الأعراب الاجتماعية و ظروف معيشتهم يتبين أن الإبل تشكل موردا رئيسا لهم فهي مأكلهم و مشربهم و ملبسهم و لا يتأتى لهم هذا إلا بتوافر المياه من خلال نزول الأمطار فكانت استمرارية حياتهم مرهونة بما تجود به السماء فكيف لا تدخل ضمن اهتماماتهم؟ أما الجبال فتمثل لهم الحامي، المأوى، الملجأ عند الضرورة (2) لهذا كله كان الجمع بين هذه الكلمات في الآية الكريمة بل تم الجمع بين معان.

قال أبو هلال العسكري: "و ينبغي أن تعرف أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاما و لكل حال مقاما حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات و أقدار المستمعين على أقدار الحالات، و اعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، و ما يجب لكل مقام من مقال" (3) لذا ربط البلاغيون بين المقال و المقام حيث عرفوا البلاغة "بأنها تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة: لها في النفس أثر خلاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه والأشخاص الذين يخاطبون" (4)

فيرى أن الفصاحة لا تكون في الكلمة المفردة إنما ضمن السياق الذي ترد فيه (5)، و لا تتفاضل الكلمات ما لم توظف داخل سياق و معنى هذا أنه من غير المعقول أن تتفاضل كلمتان مفردتان دون النظر إلى موقعهما من النظم أي في السياق اللغوي و لهذا حتى المعنى لا يظهر إلا من خلال مجموع الخطاب مدعوما بالمقام و هكذا يتعاضد السياق اللغوي و المقام للولوج إلى المعنى و استيعاب مقاصد الكلام.

(1) سورة الغاشية، الآيات ، 17، 18، 19، 20.

(2) - [http:// boumans ouraeducation.ahla mountada.com/e219-topic](http://boumans.ouraeducation.ahla.mountada.com/e219-topic).

(3) أبو هلال العسكري، ص135.

(4) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص28، 29.

(5) - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص261.

يعد البلاغيون القدامى ترابط الأبيات الشعرية تضميناً ويحسبونه عيباً علماً أنه أي « التضمين أن يكون الفصل الأول مفتقراً إلى الفصل الثاني والبيت الأول محتاجاً إلى الأخير¹ » ويمثل لذلك بقول الشاعر:

كأن القلب ليلة قيل يُغذى

بليلى العامرية أو يراح

قطاة غرها شرك فباتت

تجاذبه وقد علق الجناح

عيب على هذين البيتين بالرغم من جمال الصورة الغزلية العذبة فيهما عدم اكتمال معاني البيت الأول على الأقل نحويًا لأن السياق المعتمد عليه عند البلاغيين القدامى « هو النزوع الجزئي للبلاغة المتجذر في التربة الثقافية والجمالية القديمة² » أي كان لزاماً على الشاعر أن ينحو هذا المنحى لأن سياق ذلك العصر والمعيار الصارم الذي كان يعمل به البلاغيون القدامى يقتضي ذلك، وكانوا يعضون عليه بالنواجذ، « فكان البيت الشعري بالنسبة لهم وحدة أساسية مكتملة والقافية بابها الموصد على أن تتساوى الأبيات في نهاية المطاف³ »، لكن لكل بيت كينونته وأسراره وحده دون غيره، يقبل المجاورة ويأبى الامتزاج وفي هذه المعايير المتواضع عليها وفي خضم هذا السياق انبثقت مختلف الأشكال البلاغية فجاء البديع مثلاً موافقة واستثماراً جمالياً لهذه الوحدة المنغلقة نحويًا والرامية إلى جعل البيت مكتفياً ذاتياً، فيبين عن جماله وسحره وحده داخل أركانه كاتماً أسرارَه عن الأجنبي الذي تربطه به علاقة شكلية⁴.

¹ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين ، ص36.

² - صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص314.

³ - المرجع نفسه، ص315.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص316.

على ضوء ما ذكر يتبين أن فكرة المقام عند البلاغيين كانت ناضجة، إنما المشكلة عندهم أنهم لم يجمعوها كنظرية أو في مؤلف ما إنما هي معلومات مبنوثة هنا هناك في طيات مؤلفاتهم، لم يتفطنوا فقط إلى إمكانية جعلها نظرية بأتم معنى الكلمة، فالظروف الاجتماعية و الملابس التي تحيط بالحدث الكلامي من حالة المتكلم، السامع و من طبيعة الخطاب و الأشخاص المشاركين في الخطاب و كل الظروف المحيطة بعملية التواصل كل هذا لم يغفل عنه البلاغيون و ذكروه أو أشاروا إليه أو يفهم من سياق كلامهم لذا فلم يأت الغربيون بما يمكن أن يلغي كل ما بحث فيه النقاد العرب في هذا الموضوع نعتزف لهم بجمع هذه المعلومات في إطار نظرية متكاملة منظمة في مؤلفاتهم كما أن البلاغيين العرب عاشوا في فترة بعيدة عن زمن هؤلاء الغربيين و ما وصلوا إليه كثير إذا قورن بما توصل إليه الغربيون في هذه النظرية .

(د) - السياق و النقد الأدبي

إن العرب القدماء منذ العصر الجاهلي يفضلون شاعرا على آخر على أسس نقدية أولها النظر إلى السياق اللغوي فكانوا يؤثرون كلمة على أخرى إذا كانت أبين للدلالة و أدق في الوصف المقصود كما كانوا ينتبهون إلى موقع الكلمة في الجملة من حيث التقديم و التأخير، و يعيرون الكلمة عناية قصوى و يرون أن استعمالها داخل تركيب ما يحتاج إلى مهارة بالغة كي يتلقاها المتلقي بصدر رحب» لأن اللفظة إذا وقعت في سياقها حسنت و إذا لم تأتلف مع السياق قبحت "فالسياق يتطلب تعبيراً يناسبه بحيث يحقق هذا التعبير بعدين أساسيين: بعد المعنى الذي يفهم المتلقي و بعد التأثير الذي يتحقق من طريقة التشكيل اللغوي و التصوير الفني (1)».

من أبرز النماذج التي يتجلى السياق فيها ما يروى عن النابغة و حسان بن ثابت حيث كان الأول يضرب له قبة حمراء بسوق عكاظ فيأتي الشعراء فيعرضون عليه أشعارهم فقبل قد أنشدته مرة حسان بن ثابت قصيدة منها هذا البيت موضوع التحليل. (2)

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحى

و أسيفنا يقطرن من نجدة دما

وقف النابغة الذبياني عند هذا البيت من قصيدة في الفخر و حكم على الشاعر و فضل غيره عليه و هذا النقد الذي وجه له يدور حول خروج حسان بن ثابت على التقاليد و الأعراف و القيم الاجتماعية و لا علاقة له بأدبية قصيدته فماذا عيب عن حسان بن ثابت؟

قال له النابغة: "أنت شاعر، و لكنك أقللت جفانك و أسيفاك أو أقللت أسيفاك و لمعت جفانك" (3) بمعنى أنه وظف كلمة (جففات) و هي جمع على قلة كما استعمل (الأسيف) و هو كذلك جمع قلة و عابوا عليه استخدام كلمة (الغر) و فضلوا مكانها البيض كما أخذوا عليه قوله (أسيفنا يقطرن) و رأوا بأن يجرين يكون أفضل، كل هذه المآخذ اتفق عليها مختلف النقاد كأبي بكر الصولي و ذكرها المرزباني في

(1) - محمود عيسى، السياق الأدبي (دراسة نقدية تطبيقية، دمياط، ص8

(2) - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص60

(3) - يوسف بكار، في النقد الادبي (إضاءات و حفریات) دار المناهل للطباعة و النشر و التوزيع، ط1 بيروت 1995، ص84

الموشح و لكن لما نمعن النظر في هذه المآخذ، نجدها مستوحاة من السياق بشقيه، اعتمد النقاد هنا على السياق اللغوي في اختيار الألفاظ المناسبة و على المقام لإبراز هذه العيوب ومن ثمة إصدار الحكم النقدي المناسب.

أما السياق اللغوي فهو اختيار ألفاظ مناسبة لغرض الافتخار فهذه الجموع جفئات، أسياف الدالة على القلة لا تفي بالغرض لأن الافتخار يحتاج إلى الكثرة كما يحتاج إليه المدح أيضا فكان حريا أن يستعمل مكان الجفئات: الجفان، و مكان أسياف : السيوف فهاتان الكلمتان هما اللتان تتاسبان الفخرضف إلى ذلك عبارته "يلمعن بالضحي" فهي عبارة لا تفي بالغرض لأنها لا تبين قوة اللمعان لأن الضحي يعطي اللمعان أما قوله أسيافنا يقطرن فالأفضل لو قال يجرين للدلالة على الكثرة و البون كبير بين يقطرن و يجرين.

إن هذه المآخذ مستنبطة من العرف و العادات و القيم الاجتماعية السائدة في ذلك الزمان التي لا تعد إلا سياق الحال أو ما يسمى بالمقام إذن "عيب على حسان أن يفتخر فلا يحسن الافتخار و أن يؤلف بيته من كلمات غيرها أضخم معنى منها و أوسع مفهوما لقد ترك الجفان، و البيض و الإشراق و الجريان و استعمل الجفئات، الغر، و اللمعان و القطر و هي دون سابقتها فخرا"⁽¹⁾ لكن قدامه بن جعفر يتصدى للهجوم الذي تعرض له حسان بن ثابت، بل ينتصر له و يدعمه بنقد أقل ما يقال عنه أنه موضوعي ومقبول و ينطلق جواب قدامه بن جعفر بإنصاف حسان حيث قال: «و أن حسان مصيب. إذ كانت مطابقة المعنى بالحق في يده»⁽²⁾ بحيث يبين أن حسان بن ثابت لما اختار توظيف كلمة "الغر" لم يقصد جعل الجفان بيضا لأنه استعمل كلمة الغر قصد التعبير عن "المشهور" كما يقال يوم أغر، يد غراء إذن لم يرد البياض إنما الشهرة و النباهة⁽³⁾

أما قوله يلمعن بالضحي، فإنه لم يخطئ فيه أيضا لأن الذي يلمع في الضحي لا يدل إلا على أن نوره ساطع شديد الضياء أما الليل فأكثر الأشياء تلمع و لو كان لها قليل من النور فقط فكأنه يقصد تلمع

(1) - طه أحمد ابراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري): دار الحكمة بيروت
دت، ص24.

(2) - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص61.

(3) - المرجع نفسه، ص61.

في الضحى فما بالك بالليل، أما قول النابغة إن السيوف يقطرن لو قال يجرين أفضل، لأن الجري أكثر من القطر، فلم يرد حسان الكثرة بل ذهب إلى ما يلفظ به الناس و يعتادونه من وصف الشجاع الباسل البطل بأن يقولوا: سيفه يقطر دما و لا يقولون: سيفه يجري دما و لعله لو قال يجرين يكون قد خرج عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد إلى ما لم تجر عادة العرب به" (1)

إن قراءة قدامة بن جعفر مبنية على ثلاثة أسس

1- السياق الجمالي

2- السياق التاريخي الإجتماعي

3- السياق المعرفي

إنّ قراءته تأويلية، استنتق البيت الشعري و أخرج من دائرة السكون و الثبات في المعنى إلى دائرة متحركة، ففي السياق الجمالي تعمق في تأويل كلمة "الغر" و أبى قراءتها "بالبيض" كمعنى معجمي لأنه أدرك أن حسان رمى إلى ما هو أبعد منه فأخذ بمعنى الشهرة و هو المدلول الذي جرى به العرف و العادة (2)

أما السياق التاريخي الاجتماعي فاختار يقطرن عن يجرين لأن هذه اللفظة الأخيرة عدول عن المألوف المعروف من وصف الشجاع إلى ما لم تجر عادة العرب به. (3)

و أما السياق المعرفي فهو ينم عن معرفة طبيعة الأشياء فقد وقف قدامة بن جعفر عند "يلمعن بالضحى" و وجدها أفضل من "يلمعن بالدجى" لكون اللعان إذا كان بالضحى فذلك دليل على قوة اللعان أما بالليل فحتى اليراع تلمع.

بالرغم من عدم قبول قصة النابغة و حسان بن ثابت من طرف كثير من النقاد لأسباب مختلفة إلا أن زمان الحكاية ليس هو المحور الأساس فأهمية هذه القصة تكمن في صدق حدوثها أما زمانها فذاك

(1) - قدامة بن جعفر ، ص62.

(2) - ينظر: يوسف بكار، في النقد الأدبي (إضاءات و حفريات) ص90.

(3) - ينظر: المرجع نفسه، ص90.

أمر يحتمل الخطأ، لكن مهما يكن من الأمر فالقصة كشفت عن مدى توظيف النقاد القدامى عن وعي للسياق من أجل استنباط أحكام نقدية يقرأ بها النص ويقيد.

إن غرض المدح من أكثر الأغراض شيوعاً لدى الشعراء لما له من علاقة بالمجتمع الجاهلي و ما بعده و كان أحسنهم مدحا زهير بن أبي سلمى حسب ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: "عنه لا يعاقل في الكلام و كان يتجنب وحشي الشعر و لم يمدح أحداً إلا بما فيه" (1)

يرى قدامة بن جعفر أن في هذا القول منفعة عامة إذا فهم و عمل به و هي العلم بأن المدح لا ينبغي أن يكون إلا بما يوجد في الممدوح سواء كان مدح الرجال أو الأشياء فكيف يكون مدح الرجال؟

"إن مدح الرجال يكون بالفضائل و هي العقل و الشجاعة و العدل و العفة و كان القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال الأربعة مصيباً و المادح بغيرها مخطئاً" (2) و قد يوظف الشاعر في المدح هذه الصفات كلها أو بعضها حسب السياق و كذلك يختلف المدح بحسب الممدوح، فمدح الملوك ليس كمدح القادة و ليس كمدح السوقة فلكل مقام مقال فانظر إلى زهير بن أبي سلمى كيف جمع مختلف الصفات المذكورة آنفاً في ممدوحه حيث قال: (3)

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله

و لكنه قد يهلك المال نائله

تراه إذا ما جئته متهللاً

كأنك معطيه الذي أنت سائله

فمن مثل حصن في الحروب مثله

لإنكار ضيم أو لخصم يجادله

وصف زهير ممدوحه بالعفة لإحجائه عن الملذات و عدم تبذير أمواله فيها و بالسخاء لصرفها في العطاء و هذا عدل و أكثر من ذلك فهو شجاع و هذا ما يبينه البيت الثالث.

(1) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص65.

(2) المرجع نفسه، ص66.

(3) المرجع نفسه، ص66، 67

إن الصفات الأربعة التي يركز عليها المدح الصحيح تدخل تحت أقسامها عدة صفات فالقناعة و قلة الشره و طهارة الإزار من العفة، و الحماية و الدفاع و الأخذ بالثأر و النكاية في العدو و المهابة و قتل الأقران و السير في المهامة الموحشة و القفار من الشجاعة، و السماحة و إجابة السائل و قرى الأضياف من العدل، و الصبر على الملمات و نوازل الخطوب و الوفاء بالإيعاد من العقل⁽¹⁾

و هذه الأقسام: العفة و الشجاعة و السماحة و العقل تعد مقامات فإن كان لا بد أن يمدح الشاعر بأحد هذه الأقسام فله أن يغرق في الصفات المحددة لكل قسم، بحسب طريقة مدحه و داخل هذا الإطار تتجلى عبقرية شاعر دون الآخر كما له أن يجمع الأقسام الأربعة في قصيدة واحدة أو ينتقي بعضها و يصرف النظر عن الأخرى لذا كان لزاما على المادح أن يعرف المقامات حق المعرفة و ما يجب في كل مقام. فمدح الملوك لا يحسن ذكر جمال الملك و كل وصف عرضي فيه ، ومن أشد نعوت المدح تأثيرا في الملوك أن يبجله الشاعر ويعظمه ويبيديه خيرا من أقرانه كما فعل النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر حيث قال⁽²⁾

ألم تر أن الله أعطاك سورة

تري كل ملك دونها يتنذب

بأنك شمس و الملوك كواكب

إذا طلعت لم يبد منهم كوكب

والسياق الذي نظم فيه النابغة قصيدته هذه هو الذي فرض عليه هذه الطريقة في المدح، فالسلطان أو الملك لا يتمنى أن يمدح بالجمال بقدر ما ينتظر من مادحه ذكر فضائله و شجاعته لاسيما عدله ، من أبرز الأمثلة في هذا الموضع ما قاله عبد الملك بن مروان لعبد الله بن قيس الرقيات حيث عتب عليه في مدحه إياه، قلت في مصعب بن الزبير⁽³⁾

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

(1) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 67، 68

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 82.

(3) المرجع نفسه، ص 189.

و قلت في:

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

يرى قدامة بن جعفر أن سبب معاتبة عبد الملك بن مروان لعبد الله بن قيس الرقيات هو عدم ذكر فضائله النفسية من عقل و شجاعة و عفة و عدل و ما جانس ذلك بل اكتفى بالأوصاف الجسمية كالبهاء و الزينة في حين ذكر في مصعب أنه شهاب من الله فكأن بمروان يطلب من مادحه أن يذكر فيه ما جرت العادة ذكره في الملوك، فلا مفاخرة بين الملوك بجمال الوجوه و لكن بجمال الأعمال و الفضائل و مدى تفاني أحدهم في خدمة الإسلام و كأن به يريد أن يبين مادحه مدى قربته إلى الله، تعالى لأن في ذلك الزمان العبرة لمن يشبه الخلفاء الراشدين، فالسياق العام يقتضي ذلك و لما لم يذكر الرقيات شيئاً من هذا القبيل لم يرق عبد الملك بن مروان. و لم يقع البيت موقعا حسنا من نفسه، قد يكون عدم رضى عبد الملك بن مروان لأسباب أخرى منها أن " البيت الذي قيل في مصعب أروع وقعا و أعلى نفسا و أمس بالنور العلوي و أشد أثقالا بالله الذي يحرص الخلفاء أن يمثلوه في الأرض و ليس في بيت مصعب شيء من تلك الفضائل المذكورة سالفا على النحو الذي فهمه قدامة "(1)

إنه بالرغم من إصابة طه أحمد إبراهيم في بعض ما نقد به قدامة بن جعفر إلا أن ما ذهب إليه هذا الأخير لم يختلف كثيرا عما ذكره طه إبراهيم حين قال " و أشد أثقالا بالله الذي يحرص الخلفاء على أن يمثلوه في الأرض.

في هذا الكلام تعبير عن حب الخلفاء أن يمدحوا بصفات يرضى الله تعالى بها و الله لا يرضى إلا بالفضائل كالتى أشار إليها قدامة بن جعفر ، ضف إلى ذلك أن الملوك يتمنون مدحا لم يمدح به ملوك آخرون و إن سبق أن مدحوا بذلك فيبغون أن يزيد المادح عن ذلك حتى ينفردوا بتلك الأوصاف . و مهما يكن فإن مقام مدح الملوك له خصوصياته كما بيّنها قدامة بن جعفر و الخروج على هذا السمت هو خروج عن السياق العرفي و ما جرى عليه كلام العرب.

يرى عبد الله الغدامي في هذا الصدد أن ثمة قيمتين مركزيتين في النظام القبلي هما الكرم والشجاعة والكرم قيمة سلمية بينما الشجاعة قيمة حربية وحولهما يحتكم التصور القبلي للحياة والإنسان

(1) - طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)، ص 127 .

فالأنبل هو الأكرم وهو الأشجع، ولا تقوم الحياة القبلية إلا بهاتين القيمتين، ولم يكن البدوي كريما لأنه يريد المديح أو يتقي الذم.. لقد كان الكرم وما يزال لدى البدو قيمة وجودية أشبه ما تكون بالحفاظ على النوع فأنت تكرم ضيفك لأن عدم استضافته يعني الموت « (1) .

لذا كثر عند الشعراء المدح بصفة الكرم والشجاعة واتخذهما النقاد معيار الرضى على مدح ما إضافة إلى صفات العقل والعدل والعفة . فالعادة التي جرت أثرت في أغراض الشعر كما أثرت في الحكم النقدي لأنه مستوحى من هذا السياق ، على نحو ما « جرت السنن الشعرية على منظومة ثقافية من بضع صفات يصبها الشاعر في قالب بلاغي محكم وجرى اختراع فن المديح ليكون أهم الأسباب الشعرية، وصار الشعر لا يغوص في الخيال إلا عبر أسباب الرغبة والرغبة وهما تصنعان النسق الثقافي المحرك للخطاب والمتحكم بالذات الثقافية » (2). ويؤكد ما ذهب إليه في مكان آخر حيث يرى أن المدح كان ثقافة مفروضة نوعا ما حيث يقول: « ظهر هذا التكسب نتيجة لقيام بعض الدويلات على أطراف الجزيرة العربية و على رأسها حاكم عربي يحب الشعر و يحب صفات السؤدد كما هي محددة في الثقافة العربية و أهم هذه الصفات الشجاعة و الكرم و لن يكون أجمل و لا أحلى من أن يرى الحاكم نفسه متربعا على كرسي الشرف مثلما هو متربع على كرسي الحكم هنا جاء الشعر ليحقق هذه الرغبة الملحة و جاء فن المديح ليشكل خلطة ثقافية من البلاغة و الكذب (الجميل) و بينهما مادح و ممدوح و كيس من الذهب هذا شجاع كريم يعطي و هذا شاعر بليغ يثني » (3).

إن أمثلة مخالفة السياق العرفي كثيرة و متنوعة منها قول الشاعر المرار:

و خال على خديك يبدو كأنه سنا البدر في دعجاء باد دجونها

يرى قدامة بن جعفر أن المتعارف المعلوم، أن الخيلان سود أو ما قاربها في ذلك اللون و الخدود الحسان إنما هي بيض و بذلك تنعت، إن هذا الشاعر عكس الوصف و خالف العرف و أتى بما ليس في العادة و الطبع فحكم على قوله بالعيب في المعنى (4)

(1) - عبد الله الغزامي، النقد الثقافي (قراءة في الأساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء 2000، ص146.

(2) - المرجع نفسه، ص100.

(3) - المرجع نفسه ، ص149.

(4) - ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 215

يؤكد حازم القرطاجني على وجوب وضع اللفظ حسب المصطلح عليه، فنبه الشعراء في مختلف أبواب كتابه إلى خطورة الانحراف باللفظ عن معناه المتعارف عليه، يقول: «إذا كان في اللفظة عرف في طريق من الطرق الشعرية فالواجب ألا تستعمل في مضاد ذلك الطريق»¹. ومعنى هذا الكلام أن هناك ألفاظاً خاصة توظف في المدح وأخرى تختص بالذم، أي على الشاعر أن يدرك ما ألفاظ المناسبة للمدح وما ألفاظ التي تتلاءم والذم، ويردف القرطاجني في هذا المعنى قائلاً: «إنما وجب أن يستعمل في كل طريق الألفاظ المستعملة فيه عرفاً، لأن ما كثر استعماله في غرض ما واختص به أو صار كالمختص لا يحسن إيرادها في غرض مناقض لذلك الغرض، ولأنه غير لائق به لكونه مألوفاً في ضده وغير مألوف فيه وذلك مثل استعمال السالفة والجيد في النسيب واستعمال الهادي والكاهل في الفخر والمديح ونحويهما، واستعمال الأخدع والقتال في الذم»². وهذه المعاني تتجه نحو وجوب العمل بالسياق، الشاعر ينتقي الألفاظ التي تخدم غرضه حسب المقام لأن كل مقام يفرض ألفاظاً بحيث مقام المدح يفرض ألفاظاً مباينة لما يليق من ألفاظ في مقام الذم، بل يختلف بينهما حتى الأسلوب، «وينبغي أن يكون نمط نظم الفصل مناسباً للغرض، فتعتمد فيه الجزالة في الفخر مثلاً والعذوبة في النسيب»³، لأن سياق الفخر يقتضي من الشاعر أن يختار ألفاظاً جزلة مناسبة لهذا الغرض أما سياق النسيب فإنه يجز ألفاظاً رقيقة، عذبة، تصور تعذب العاشق من شدة الهوى ومن لوعة الفراق ويعبر عن آهاته وآناته فتراه يحيط بدقائق غرضه ورقائقه وشوارده وأوابده.

¹ - أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الاسلامي، ط3، بيروت 1986، ص152.

² - المرجع نفسه، ص364.

³ - المرجع نفسه، ص288.

و إذا كان الشعر مستكرها و كانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات و إذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاء ذلك الشعر مؤونة، و أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، و سبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان⁽¹⁾ ، إذا تأملنا هذه الأحكام النقدية التراثية تلمسنا فيها دور السياق اللغوي و السياق غير اللغوي لا سيما السياق الاجتماعي بحيث أن الألفاظ يفترض أن تكون متماثلة فيما بينها و تتجاذب و تتطالب و لا ينبغي أن تكون متنافرة و عبر الناقد عن هذا التنافر بما عرف من تنافر أولاد العلات و استعان بهذا التشبيه للتوكيد على مدى وجوب مماثلة لفظ لأخيه واستشهدوا لهذا الحكم النقدي بقول ابن يسير في أحمد بن يوسف حين استبطأه.

لم يضرها و الحمد لله، شيء

و انثنت نحو عزف نفس ذهول

يرى الجاحظ أن عجز هذا البيت بعض ألفاظه يتبرأ من بعض⁽²⁾ أنشد خلف الأحمر في هذا المعنى.

و بعض قريض القوم أولاد علة

يكد لسان الناطق المتحفظ

قريب من هذا المعنى ذكر آخر:

و شعر كبر الكباش فرق بينه

لسان دعي في القريض دخيل

(1) – الجاحظ، البيان و التبیین، ج1، ص 66-67 .

(2) – المرجع نفسه، ص66.

إن قوله كبر كبش للدلالة على أن أجزاء البيت من الشعر مختلفة متباينة و متنافرة و مستكرهة تشق على اللسان و تكده⁽¹⁾ فللتعبير عن تباين الألفاظ و تنافر أجزاء الأبيات لم يجد الناقد إلا أن يستعمل تشبيها مستوحى من بيئته " بحر الكبش" للحكم على البيت الشعري و الغرض من ذلك هو الحفاظ على السياق اللغوي و منه قول أحدهم لرؤية بن العجاج : أن ابنك يقول شعرا، فقال:

" لو كان لقوله قران⁽²⁾ " و معنى القران التشابه و الموافقة، و أنشد ابن الأعرابي.

و بات يدرس شعرا لا قران له قد كان نقحه حولاً فما زاد

و بناء على السياق اللغوي انتصر ابن الأثير لاستعمال كلمة "ضيضى" في القرآن الكريم حين شكك أحد في فصاحة القرآن، فأبرز له بما لا يدع مجالاً للشك أن الكلمة جاءت في موضعها لا تؤدي غيرها دورها وهذا نظراً لانتفاع الوحدات اللغوية في هذه الآية التي وردت فيها هذه الكلمة على شكل واحد قال تعالى: " ألكم الذكر و له الأنثى، تلك إذن قسمة ضيضى " ⁽³⁾ ثم أردف ابن الأثير قائلاً لخصمه: "ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مجموعة على حرف (ياء) " ⁽⁴⁾ فقال تعالى: "و النجم إذا هوى ما ضل صاحبكم و ما غوى" ⁽⁵⁾ إذن حسب السابق "جاءت اللفظة على الحرف المسجوع (الألف المقصورة) الذي جاءت السورة جميعها عليه و غيرها لا يسد مسدها في مكانها" ⁽⁶⁾

و غير بعيد عن هذا المعنى، قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك قال: لم ؟ قال لأنني أقول البيت و أخاه و أنت تقول البيت و ابن عمه⁽⁷⁾ و معنى هذا الكلام أن " جعل البيت أبا البيت إذا أشبهه و كان حقه أن يوضع إلى جنبه⁽⁸⁾" و يكرهون تنافر أجزاء الأبيات و أجزاء القصيدة الواحدة.

(1) – الجاحظ، البيان و التبیین، ج1، ص67.

(2) – المرجع نفسه، ص 68 .

(3) سورة النجم، الآيتان: 21-22

(4) ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في آداب الكاتب و الشاعر، ج1، ط2، منشورات دار الرفاعي، الرياض 1983، ص264، 265

(5) سورة النجم، الآيتان 1، 2.

(6) ابن الأثير، ص264.

(7) – المرجع نفسه ص 228.

(8) – المرجع نفسه ص 228 .

من الأبيات الشعرية ما لا يفهم إلا بالسباق اللغوي و ذلك بعد النظر إلى ما قبله أو إلى ما بعده أو إليهما معا و منه قول جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم

يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

لا يفهم المتلقي هنا إلى أي شيء أو ما من أفعاله في قوله (فعلت ما لم أفعل) هل أراد أن يبكي إذا رحلوا أو يهيم على وجهه من الغم الذي لحقه أو يتبعهم إذا ساروا لم يبين عن غرضه. و كذلك قول سعد بن مالك:

فإنك لو لاقيت سعد بن مالك للاقيت منه بعض ما كان يفعل

لم يوضح ماذا كان يفعل و ماذا سيلقى المخاطب و لكن السياق هو ما يمكن أن يكشف المعنى المخبوء وراء كلام الشاعر المبهم، أي لا يتضح المعنى إلا أن يسمع ما قبل البيت أو ما بعده و هنا إشارة من أبي هلال العسكري إلى السياق اللغوي دون أن يذكره صراحة.⁽¹⁾ وإذا تعلق الأمر بغرض آخر كالهجاء الذي إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس و يثبت الصفات المستهجنة التي تنص عليها أيضا لم يكن مختارا⁽²⁾ و الاختيار أو السياق أن ينسب المهجو إلى اللؤم و البخل و الشره و ما أشبه ذلك و لا ينبغي وصف المهجو بقبح الوجه و صغر الحجم و ضؤولة الجسم⁽³⁾.

قال أحد الشعراء:

و قلت لها ليس الشحوب على الفتى

بعار و لا خير الرجال سمينها

و ذكر السؤال أن قلة العدد ليست بعيب

فقلت لها إن الكرام قليل

تعرنا أنا قليل عديدنا

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص33

(2) المرجع نفسه، ص104

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص104

من هنا فإن السياق الاجتماعي هو الذي يوجه الهجاء، فلا يحسن المادي منه لأن المعايير تقتضي ذلك كما تقتضيه في مختلف الأغراض « فالنسيب بموتيفاته والرحيل والمديح والفخر والهجاء هي ظواهر أو ممارسات ثقافية تحولت إلى مفاهيم داخل الخطاب الشعري وتحولت بمرور الزمن إلى تقاليد أدبية وأنساق لها خصوصياتها داخل الخطاب »⁽¹⁾.

فاعتمد النقد الأدبي القديم هذه التقاليد كمعايير قاسية بنى عليها الشاعر شعره حتى باتت جودة الشعر أو ردايته مرهونة بمدى استجابته لتلك الثقافة السائدة أي لتلك التقاليد⁽²⁾.

تخضع القصيدة العربية القديمة إلى طبيعة الشاعر كما تخضع لأنساق ثقافية عامة، الشاعر القديم كان يخضع معاييره للفحص وإعادة التقويم ويقارنها بمعايير الجماعة الثقافية حتى تخرج القصيدة بالشكل الذي يرضي الذوق العام آنذاك.

لقد جرت العادة بمحاولة الشاعر إراديا أو بغير إرادته أن ينصهر في بوتقة هذه الجماعة الثقافية وإلا يُلَفِظ ويُرفض، كما حدث لشعر الصعاليك وشعر النقائض لأنهما يُعدان من التمرّد الذي سجله النقاد على القصيدة التقليدية في ذلك الوقت⁽³⁾.

كما لا يحسن التناقض المكروه في أشعارهم حسب قدامة بن جعفر الذي يستقبّحه كثيرا ومنه قول ابن هرمة:

تراه إذا أبصر الضيف كلبه

يكلمه من حبه وهو أعجم

فالشاعر أقنى الكلب الكلام ثم أعدمه عند قوله وهو أعجم «⁽⁴⁾ وعاب عليه إذن هذا التناقض الصارخ حسبه لأن السياق يقضي بتوافق المعاني، وغاب عن قدامة أن في هذا البيت استعارة أضفت جمالا عليه وتقابلا زاد البيت رونقا، لكن يبدو أن طغيان الفكر الفلسفي المنطقي عليه هو ما جعله يقبح هذا البيت.

(1) - عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر 2010، ص139.

(2) - ينظر المرجع نفسه، ص139.

(3) - المرجع نفسه، ص142.

(4) - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت 2004، ص145.

أما في النسب و الغزل فيروى أن عمر بن أبي ربيعة و الأصوص و نصيب نزلوا على كثير في خيمته و تحدثوا كثيرا عن الشعر، فطفق كثير ينقد قول عمر بن أبي ربيعة:

قالت لها أختها تعاتبها

لا تفسدن الطواف في عمر

قومي تصدي له ليبصرنا

ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها قد غمزته فأبى

ثم استكبرت تشتد في أثري

هجن كثير هذه المعاني التي تتعرض النساء فيها للرجال لأن ذلك يخالف العادة و العرف و كذلك ينقص من قيمة المرأة لأن الحرية إنما توصف بالحياء و الإباء و الإلتواء و البخل و الإمتناع⁽¹⁾ فالنأي عن هذا السياق ينقص من قيمة النسب و ينعته بالردىء و أضافوا إلى النسب الردىء التجلد فإن العاشق ينبغي أن يكون متيما لا مقاومة له أما الخروج عن هذا السياق فيعد نسيبا رديئا كقول نصيب⁽²⁾.

فإن تصلي أصلك و إن تعودى

لهجر بعد وصلك لا أبالي

على عكس زهير حيث قال:

لقد باليت مطعن أم أوفى

و لكن أم أوفى لا تبالي

(1) ينظر: طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص41.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص41.

أما بشار بن برد فقد اخترق العرف و ثار عليه حيث قال:

عدمك في الهوى يا قلب قلبا أتجعل من هويت عليك ربا

و من سنن العرب أيضا التي لا تفهم معانيها إلا سماعا ويقصد سياقاً إمساكهم عن بكاء قتلها حتى
تطلب ثأرها فإذا أدركته بكت حينئذ⁽¹⁾ من ذلك قول الربيع بن زياد العبسي

من كان مسرورا بمقتل مالك

فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسير يندبنه

يلطمن أوجههن بالأسحار

قد كن يكنن الوجوه تسترا

فالآن حين برزن للنظار

أراد من كان مسرورا بمقتل مالك فليستدل ببكاء نسائنا و ندبهن إياه على أنا قد أخذنا بثأرنا و قتلنا
قاتله⁽²⁾ و لكن لا يمكن الوصول إلى هذا الفهم ما لم يدرك السياق الذي قيلت فيه هذه الأبيات أي دون
الوقوف على "هذه العادة الجاهلية إذ لا معنى لبكاء النساء و لطمهن وجوههن بوجه النهار إلا النياحة
على مالك و لكن الشاعر لا يقصد هذا إنما يريد ما وراء هذا البكاء أو ما يرمز إليه من أخذ بالثأر لهذا
القتيل و هو يوحى بهذه العادة الجاهلية في خفاء"⁽³⁾

و يعد هذا الشعر محمودا لتناسبه مع عادات العرب و سننهم و قد ذكره ابن طباطبا العلوي ضمن
الأشعار المحكمة و منها أيضا قول نهشل بن حري

أنترك عامر و بنو عدي و تغرم دارم و هم براء

كذاك الثور يضرب بالهوارى إذا ما عافت البقر الظماء

(1) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، منشأة المعارف الاسكندرية، د ت، ص73.

(2) المرجع نفسه، ص73.

(3) المهدي ابراهيم الغويل، السياق و أثره في المعنى، ص147.

و أحسن الشعر عند ابن طباطبا ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجا و فصاحة و جزالة ألفاظ و دقة معان و صواب تأليف....." (1) و يرى أنه ينبغي أن ينبئ مصراعه عن تمامه يقول البحري.

سلبوا البيض قبرها فأقاموا

لطبائها التأويل و التنزيلا

فإذا حاربوا أدلوا عزيزا

و إذا سالموا أعزوا ذليلا

فصدر البيت الثاني يقتضي عجزه كما ورد و نظرا لجزالة ألفاظه و حسن نظمه، و دقة معانيه يمكن التفتن و الاهتداء إلى عجز البيت مدعوم بالسياق اللغوي الذي يساعد أيضا على الحكم على هذا البيت بالحسن و اشتباه أوله بآخره نسجا و فصاحة، يقول ابن قتيبة: "و المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر و اقتدر على القوافي و أراك في صدر بيته عجزه و في فاتحته قافيته" (2) و هناك من الشعراء "من يسهل عليه المديح و يعسر عليه الهجاء و منهم من تيسر له المراثي و يتعذر عليه الغزل فهذا ذو الرمة مع ما يعرف عنه من القدرة على التشبيهات و الوصف إلا أنه إذا صار إلى المديح و الهجاء خانه الطبع و ذاك أخره عن الفحول، فقالوا في شعره: أبعار غزلان و نقط عروس." (3)

إنّ هذه الأحكام النقدية توضح لماذا عبارة "أبعار غزلان"، و "نقط عروس"؟ يقول ابن طباطبا: "واعلم أن العرب أودعت أشعارا من الأوصاف و التشبيهات و الحكم ما أحاطت به معرفتها و أدركه عيانها و مرت به تجاربها و هم أهل وبر: صحنهم البوادي و سقوفهم السماء فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها و فيها" (4) فلهذا وجه لذي الرمة نقد شبهوا فيه شعره بأبعار غزلان و نقط عروس، حيث قال أبو عمرو بن العلاء في ذي الرمة: "إنما شعره نقط عروس تضمحل عما قليل و أبعار ظباء لها شم في

(1) ابن طيا طيا، عيار الشعر، ص167.

(2) أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، دار الثقافة، بيروت، دت، ص 34

(3) المرجع نفسه ص37-38.

(4) ابن طباطبا، ص48.

أول شمعها، ثم تعود إلى أرواح الأبعاد" (1) نلاحظ هنا كيف استعانوا بالسياق الاجتماعي للحكم على شعر ذي الرمة و دقة التشبيهات مستوحاة مما يلاحظونه في مجتمعهم و من عاداتهم و تقاليدهم و بيئتهم: "لقد شبه أبو العلاء شعر ذي الرمة بنقط العروس التي تذهب بالغسل و تفني في أول ظهور و بأبعاد طباء التي بها رائحة مقبولة من أثر النبت الطيب الذي تأكله ثم لا تلبث أن تزول، يريد أن يقول أن شعر ذي الرمة حلو أول ما نسمعه فإذا كررت إنشاده ضعف يريد أنه غير خصب و لا قوي و لا عميق الأثر في النفس" و من الأمثلة التي بدا السياق الاجتماعي بما فيه أثر البيئة في استنباط احكام نقدية ما يروى عن ربعة بن حذار الاسدي حين تحاكم إليه الزبرقان بن بدر و عمر بن الأهتم وعبدة بن الطيب و المخبل السعدي في أيهم أشعر، فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل و لا ترك نيئاً فينتفع به، و أما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلأأ فيها البصر، فكلاً أعيد فيها النظر نقص البصر و أما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم و ارتفع عن شعر غيرهم، و أما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر و لا تمطر". (2) الملاحظ على هذا الحكم في التمييز بين هؤلاء الشعراء هو لجوء الناقد إلى تشبيه أشعارهم بما يعرف في محيطه و ما كان يتداول و ما جادت البيئة به على الأنظار و كل شاعر وجه له نقد يناسب شعره فيريد الناقد "أن شعر الزبرقان يجمع بين الطيب و الرديء أو هو ألفاظ مرصوفة لا قوة في معانيها و لا روح تؤلف بينها، و شعر عبدة بن الطيب قوي الأسر متين النظم متماسك متلاحم، فالصياغة و المعاني هما ما ينقد في الشعر في العصر الجاهلي" (3) و لما خرج المتلمس عن العرف بمنح البعير "الصيعرية" في قوله

و قد أتتاسى الهم عند احتضاره

بناج عليه الصيعرية مكدّم

(1) طه أحمد ابراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص59.

(2) المرزباني، الموشح ، ص107، 108.

(3) احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة ط4، بيروت 1978 ، ص13.

عاتبه طرفه و عاب عليه ذلك بل استهزأ ببيته الشعري و قال: "استتوق الجمل لأن الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير" ⁽¹⁾ و كل هذا مستوحى مما جرت العادة به.

وكان لاعتماد الشفهية في رواية الأشعار دور في تغير الأحكام النقدية التراثية الصادرة في حق شاعر ما بحيث يقال أن هذه القصيدة أجود ما قاله الشاعر الفلاني، وتلك أقبح، وهذا البيت من روائع هذا الشاعر وذاك أخبث بيت سمع، وكثيرا ما كان السبب يعود إلى أصل الرواية أي صدقها أو كذبها، قال ابن سلام الجمحي: «أخبرني أبو عبيدة عن يونس، قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة وهو عليها، فقال: أما أطرفنتي شيئا؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى، قال: ويحك! يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب في الناس» ⁽²⁾. ويدعم هذا الموقف طه حسين حين يصف حماد الراوية بالمسرف على نفسه وبالفجور وقلة الحياء بحيث كان سكيراً مستهترا بالخمير والفسق وكان صاحب شك ودعابة ومجون ⁽³⁾.

لما جاء عصر البعثة حافلا بالشعر فياضاً به، نشبت الخصومة بين النبي (ص) و أصحابه من ناحية و بين قريش و العرب من ناحية أخرى، كانت عنيفة حادة لم تقتصر على السيف، بل امتدت إلى الشعر و إلى المناقضات بين شعراء المدينة و شعراء مكة و غيرهم كانت قريش تجزع كل الجزع من هجاء حسان بن ثابت و لا تبالي آنذاك بشعر ابن رواحة لأن الأول كان يطعن أحسابهم بينما كان الثاني يطعن في عقيدتهم و يعيرهم بالكفر ⁽⁴⁾ و لكن لما أسلمت كان شعر ابن رواحة هو الذي يحز قلوبهم حزا فانظر هنا إلى هذا التغير فما حكموا عليه بقوة التأثير قبل أن يسلموا تبدد و تلاشى لان السياق تغير أي المقام تبدل و ما كانوا لا يولون له أهمية صار ذا تأثير في المتلقي فالحكم النقدي هنا مستوحى من تغير الظرف أي المقام و السياق الاجتماعي ككل.

تناول النقد القديم أحكاماً جزئية، ثم تطور ليتناول ظواهر نقدية عامة، و قد كان سياق البيت في إطار غرض الشاعر مثلاً و في إطار الرغبة في أن يكون كلامه مناسباً للمتلقي و في إطار طبيعة

(1) طه أحمد إبراهيم ، ص19.

(2) - محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء ، ج1، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية ، القاهرة، دت، ص48 .

(3) - ينظر: طه حسين ، في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر ، ط4 ، تونس 2004، ص134 .

(4) طه أحمد إبراهيم، ص31

الموضوع و المعنى الذي يريد التعبير عنه يمكن أن يعبر عنه بعدة تشكيلات مختلفة من حيث اللغة و التصوير و لكن بدرجات متفاوتة .⁽¹⁾

على الشاعر أن يبحث عن أنسب تشكيل يتطلبه السياق ليحقق له هدف التوصيل و التأثير و يتضح ذلك في قصة الحطيئة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه روي أن الحطيئة حين أخرجه الخليفة عمر من السجن أنشد

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ

زغب الحواصل لا ماء و لا شجر؟

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة

فاغفر عليك سلام الله يا عمر

و ما كاد ينهي إنشاده حتى لوحظ عمر و هو يبكي شفقة لأن الشاعر تمكن من وضعه في مقام يتخيل فيه أبناء صغارا جياعا يسألونه العفو عن أبيهم و يستفسرونه لماذا ألقى عائلهم في ظلمة السجن فما كان من الفاروق إلا أن يبكي و لو ترجم بكاؤه حكما نقديا لمدح الحطيئة و لرأى في شعره حسنا ليس بسبب الاستعطاف إنما بفضل المعاني الجزئية التي شحنها بإحساس مرهف (فرغب الحواصل) تصوير لعدم وجود من يعيل الأبناء كالطيور الصغيرة داخل العش تشرئب أعناقها حين يصل معيها إليها، كما أن قعر مظلمة تثير الرهبة و الوجل و الفرق ثم يتبعه بطلب العفو .

إن هذه الألفاظ من حيث الدلالة الصوتية و من حيث التركيب ظواهر تعبيرية تطلبها السياق ليكون المعنى قادرا على التأثير على عمر رضي الله عنه.

قال بعض الحكماء: للكلام جسد و روح فجسده النطق و روحه معناه" أما ما وصفته العرب و شبهت بعضه ببعض كثير لا يحصر عدده"⁽²⁾، جال الشعراء في الصحراء، في البادية و في الحاضرة في مختلف الفصول فوصفوا ما رأوا من حيوان، و جبل و رمال و نبات و نار و كثر حديثهم عن الفرس حتى هيمنت على وصفهم بل وظفها حتى النقد حين أرادوا شرح و تفسير أحكام نقدية و الأمدي واحد

(1) محمود محمد العيسى، السياق الأدبي (دراسة نقدية تطبيقية) ، منشورات كلية التربية جامعة دمياط، القاهرة 2004، ص9

(2) ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص49

منهم حيث يقول: "ألا ترى أنه قد يكون لك فرسان سليمان من كل عيب، موجود فيهما سائر علامات العتق و الجودة و النجابة و يكون أحدهما أفضل من الآخر، بفرق لا يعلمه إلا أصحاب الخبرة و الدربة الطويلة و كذلك الشعر قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود و إن كان معناه واحدا وأيها أجود في معناه إن كان معناه مختلفاً"⁽¹⁾ ثم إن السياق الثقافي يتدخل من أجل استنباط أحكام نقدية بمقارنة الأبيات الشعرية في الغرض الواحد بين مختلف الشعراء و لو اختلفت عصورهم من ذلك ما روي عن السيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) أنها هجنت قول كثير عزة حين قال:

و ما روضه بالحزن طيبة الثرى يمدح الندى جثائها و عرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا و قد أوقدت بالمندل الرطب نارها

العيب في البيت الثاني لأن الشاعر عادة حريص على أن يصف محبوبته بطيب الرائحة و لا تحتاج ألى أن توقد بالمندل الرطب نارها فالمعنى يقتضي اختيار ألفاظ مناسبة تصف أن طيبها نابع من جسدها. كما قال امرؤ القيس

ألم ترياني كلما جئت طارقا

وجدت بها طيبا و إن لم تطيب

فاستشهدت السيدة سكينة بهذا البيت لامرئ القيس لتؤكد ما ذهبت إليه في نقدها لأنه يتناسب و سياق الموضوع الذي تناولته. "و كانت نظرتها النقدية صائبة و أصدرت حكما لا يخلو من نظرة جمالية في نطاق المعنى محور السياق"⁽²⁾ يرى القاضي الجرجاني أن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع و دماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة و من شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك و تجد شعر عدي "و هو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق لملازمة عدي الحاضرة و بعده عن جلافة البدو و جفاء الأعراب.

(1) أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى ، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، منيل الروضة، بيروت، 1944.ص413

(2) محمود محمد عيسى، السياق الأدبي، ص11

و لما كثرت الحواضر و فشا التأدب و التطرف، اختار الناس من الكلام ألينه و أسهله" (1) من هنا بدا الفرق بين كلام المتقدمين و هؤلاء شاسعا، بحيث إذا قورن به يبدو الأخير لنا فيظن ضعفا فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء و رونقا، لطفا و رشاقة. و من هنا يتبين بما لا يدع مجالا للشك مدى تأثير السياق السوسيو ثقافي و البيئة بصفة عامة في الأدب و في الحكم له أو عليه و أكثر من ذلك ما ذهب إليه عبد الكريم بن إبراهيم إذ قال: و قد تختلف المقامات و الأزمنة و البلاد فيحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره و نجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه و كثر استعماله عند أهله بعد ألا تخرج من حسن الاستواء و حد الاعتدال وجودة الصنعة. (2) من هنا ندرك تماما أن السياق هو الذي يتحكم في الإبداع جلّه بتأثيراته الناتجة عن اللغة في حد ذاتها وعن المجتمع وثقافته وعاداته وتقاليده وبصفة أعم عن العرف وكل ما له علاقة من قريب أو من بعيد بمعتقدات الإنسان.

(1) - القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت 1966 ،ص19.

(2) - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و أدابه، ب 1 و 2، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت 2001، ص97.

خاتمة

إن السياق حاضر في نصوص الأحكام النقدية التراثية، سواء ما بدا جليا كالسياق العرفي السوسيو ثقافي أو ما يستتبط من علاقات الوحدات اللغوية فيما بينها داخل النص الواحد، بيد أنه لم ينضج إلى درجة يمكن الحديث فيها عن نظرية سياقية عربية، ليس لأن عناصرها غير متوافرة في التراث العربي إنما بسبب عدم تفتن التراثيين إلى جمع كل ما تعلق بالسياق اللغوي و غير اللغوي في مؤلف يلم بجميع تفاصيل هذا الموضوع، بل اكتفوا بالإشارة إليه تصريحاً أو تلميحاً، وظفوا لذلك مصطلحات عدة كالمقام والمقتضى و مقتضى الحال و الحال و السياق و السباق و المساق و النظم، لكن كل مصطلح له معناه الخاص به، كما برزت عندهم مقولات متنوعة تعبر تماماً عن السياق بنوعيه مثل: لكل مقام مقال، لكل كلمة مع صاحبها مقام المخبر ليس كالمشاهد، وربّ إشارة أبلغ من عبارة.

أفضى بحثنا إلى نتائج محددة نجلها فيما يلي:

- 1- معرفة التراثيين للسياق بنوعية معرفة واضحة لاسيما الأصوليين و النقاد بما فيهم اللغويون و النحاة و البلاغيون.
- 2- اعتماد التراثيين على الشق الخارجي للسياق أي المقام وبخاصة في النقد الأدبي، أكثر من تركيزهم على السياق اللغوي.
- 3- تركيز اللغويين و النحاة على السياق اللغوي أو المقالي في مباحثهم للغة من خلال الخطاب الشعري، يتجلى ذلك في تفسيرهم لعمليتي التقديم و التأخير ولظاهرة الحذف.
- 4- بروز السياق العرفي عند جل التراثيين واعتماد معيار "القديم" وما جرت عليه عادة العرب لإصدار أحكام نقدية.

5- المقام عند الأصوليين يتعلق خاصة بأسباب نزول الآيات القرآنية الكريمة.

6- تحتل قرينة السياق مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللغة من حيث مبانيها و علاقتها النحوية

و تشتمل هذه القرينة على العناصر غير اللغوية مثل ظروف المتكلم و المخاطب و علاقتهما و الظروف الاجتماعية من تقاليد و عادات و ثقافة و معتقدات وكل هذا جلي في التراث.

7- السياق المقالي و المقام، ركيزتان لا يمكن الاستغناء عن إحدهما للوصول إلى المعنى، فهما

متكاملتان لأن اللغة ليست الوحدات اللغوية و علاقتها فيما بينها فحسب، بل هي أيضا فكر صاحبها و حالته و ظروف خارجية مختلفة.

8- إن أهم القرائن التي تعين على فهم النص الأدبي و إصدار حكم نقدي بشأنه السياق، فإذا بترت

النصوص من سياقاتها لا يتم الوصول إلى كنهها أو في أحسن الأحوال تؤول تأويلات بعيدة عن المراد.

9- وظف النقاد التراثيون في صدد نقد الشعر ما كان يلح عليهم في محيطهم من حيوان و جماد

و علاقات إنسانية و شبهوا بعض الأشعار بنقط العروس، بالفرس في حالات معينة و بأبناء العلات حين تتنافر الألفاظ فيما بينها.

10- عبر التراثيون عن مصطلح السياق بالمقام و مقتضى الحال و الحال في غالبيتهم، كما وظف

ابن طباطبا العلوي مصطلح السماع للتعبير عن السياق العرفي.

11- من خلال تتبع مصطلح السياق في المعاجم الأجنبية تبين أن الغربيين تناولوه كمصطلح

مباشرة و لم نجد ذلك في المعاجم العربية بل اكتفت بشرحه لغويا فقط .

12- إن التراثيين عنوا باللغة العربية لا لكونها لغة القرآن فحسب بل لما فيها من قواعد متينة و نواميس منطقية و لو لم يقلب لها الدهر ظهر المجن لاحتلت مكانة مشرفة تعكس جهود هؤلاء الذين خدموها و أفنوا أعمارهم من أجلها و انكبوا على الأدب العربي كذلك فلم يغفلوا شوارده عن جمالياته أيضا وعن كونه مرجعا لا يستهان به في القراءة التاريخية لا سيما في مراحل ما قبل الكتابة والتدوين.

قائمة المصادر و المراجع

القرآن الكريم

I المراجع باللغة العربية:

(1) - الكتب بالعربية:

- Ø ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طباعة دار فاعي، ط2، الرياض، 1983.
- Ø أحمد يوسف - عبد الفتاح - قراءة النص وسؤال الثقافة ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، ط1، عمان 2009.
- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1 الجزائر 2010.
- Ø الأمدي- أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، منيل الروضة، بيروت، 1944.
- Ø أمين- أحمد ، النقد الأدبي، ج1، ج2، دار الكتاب العربي، ط4، بيروت ، 1967.
- Ø أيت أوشان - علي، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة ، مؤسسة للنشر والتوزيع ط1، الدار البيضاء، 2000.
- Ø بكار يوسف، في النقد الأدبي (إضاءات وحفريات)، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت 1995.
- Ø بناني - محمد الصغير، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.
- Ø تمام- حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط4، القاهرة 2004.
- Ø الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج1، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل بيروت (د.ت).
- Ø الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد التنجي، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 2005.
- Ø الجرجاني- القاضي علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت 1966.
- Ø الجمحي- محمد بن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية ، القاهرة د.ت .

- Ø ابن جني - أبو الفتح عثمان، الخصائص، ج1، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط3، القاهرة 1987.
- Ø حمدي أبو علي- محمد بركات ، كيف نقرأ تراثنا البلاغي ، دار وائل للنشر والتوزيع ، ط 1، عمان 1999.
- Ø حمري- عبد الواسع، الخطاب والنص (المفهوم العلاقة السلطة) ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت 2008.
- Ø خطابي - محمد ، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) ، المركز الثقافي العربي، ط2 ، الدار البيضاء 2006.
- Ø خليل عبد النعيم، السياق بين القدماء والمحدثين، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، ط1، الاسكندرية 2007.
- Ø ابن دريد - أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، جمهرة اللغة، م2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 2005.
- Ø ابن رشيقي- أبو علي الحسن، القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1، ج2، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، بيروت 2001.
- Ø زرال- صلاح الدين، الظاهرة الدلالية (عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع هجري) منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2008.
- Ø الزمخشري- أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار صادر، ط1، بيروت، 1992.
- Ø الزنكي- نجم الدين قادر كريم، نظرية السياق (دراسة أصولية)، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 2006.
- Ø السكاكي- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي ، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- Ø السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، الإتيقان في علوم القرآن، دار مصر للطباعة، القاهرة 1996.
- Ø ابن طباطبا العلوي- محمد بن أحمد، عيار الشعر، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ط3 الاسكندرية ، 1984.
- Ø الطلحي- ردة الله بن ردة بن ضيف الله، دلالة السياق، معهد البحوث العلمية، ط1، جامعة أم القرى، مكة 2002.
- Ø طه- أحمد إبراهيم تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع للهجري)، دار النشر، د.ط، د.ت.
- Ø طه- حسين ، في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر ، ط4 ، سوسة، تونس 2004.

- Ø عباس - إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) ، ط2، بيروت 1978.
- Ø العسكري- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الضاعتين، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986.
- Ø عموش- خلود، الخطاب القرآني (دراسة في العلاقة بين النص والسياق) ، عالم الكتب الحديث، ط1 عمان 2008.
- Ø عيسى- محمود محمد، السياق الأدبي (دراسة نقدية تطبيقية)، منشورات كلية التربية ، جامعة دمياط، القاهرة 2004.
- Ø الغدامي - عبد الله، النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية) ، المركز الثقافي العربي ، ط1 الدار البيضاء 2000.
- Ø الغويل المهدي إبراهيم، السياق وأثره في المعنى (دراسة أسلوبية)، أكاديمية الفكر الجماهيري بنغازي 2011.
- Ø فضل - صلاح ، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب اللبناني ، ط1 ، بيروت 2004.
- Ø ابن فارس- أبو الحسين أحمد بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، م4 دار الجيل، ط1، بيروت 1991.
- Ø ابن قتيبة- أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، ج1، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت.
- Ø قدامة بن جعفر- أبو الفرج، نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة 1979.
- Ø القرطاجني - أبو الحسن حازم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الاسلامي، ط3، بيروت 1986.
- Ø القزويني- الخطيب، الإيضاح والبلاغة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر 2007.
- Ø الكبيسي خليل ، علم التفسير ،(أصوله وقواعده) ، مكتبة الصحابة، ط1، الشارقة 2007.
- Ø مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج1، مطابع الأوقفت، شركة الإعلانات الشرقية، ط3، القاهرة، 1985.
- Ø مختار أحمد عمر، علم الدلالة، علم الكتب، ط5، القاهرة 1998.
- Ø المرزباني - أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ، الموشح (مأخذ العلماء على الشعراء) ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة 1965.
- Ø ابن منظور- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب، م10، دار صادر، ط1، بيروت 1990.

Ø الهاشمي- أحمد ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2003.

Ø يوسف أحمد، القراءة النسقية، (سلطة البنية و وهم المحايدة)، ج1، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2003.

(2) الرسائل الجامعية :

Ø فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي، دلالة السياق و أثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام، رسالة ماجستير جامعة أم القرى ، مكة 2005.

Ø مدواس زينة ،نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء النظرية السياقية الحديثة، رسالة ماجستير 2002/2001، جامعة مولود معمري تيزي وزو.

(3) - الدوريات:

Ø غماري - نصيرة ، نظرية أفعال الكلام عند أوستين، مقالة في مجلة اللغة والأدب ع17، جامعة الجزائر جانفي 2006.

(II) المراجع باللغة الأجنبية:

(1) - الكتب المترجمة:

Ø دي سوسير، فيردناندي، دروس في الألسنية العامة، تر- صالح القرماضي، الدار العربية للكتاب، ط1، تونس 1985.

Ø فان دايك، تين، النص والسياق، تر، عبد القادر قنيني، إفريقيا شرق، الدار البيضاء، 2000.

Ø لاينز جون ، اللغة والمعنى والسياق، تر، عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد 1987.

Ø ياكسون، رومان ، قضايا شعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد حنوز، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء 1988.

(2) - الكتب باللغة الفرنسية:

- Dictionnaire de la linguistique et des sciences du l'langage, ED Larousse, Paris 1999.
- Georges Mounin, dictionnaire de la linguistique, ED : quadrigue, Paris 2004
- Micro robert, imprimé en France, par broardard graphique, ED Paris 1982.
- Petit Larousse en couleurs, édition Paris 1984.

(III) - المواقع الإلكترونية:

- [http:// boumans ouraeducation.ahla mountada.com/e219-topic](http://boumans.ouraeducation.ahla.mountada.com/e219-topic)
السياق عند البلاغيين (ملامحه وتطبيقاته) أ.مسعود بودوخة
- www.kam.edu.sa/files/372/reseaches/854
- أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى للأستاذ محمد سالم صالح

فهرس الموضوعات

4	مقدمة
7	الفصل الأول: السياق عند المحدثين
8	- السياق لغة واصطلاحاً / السياق ومصطلحاته
16	- السياق عند الغربيين
39	- السياق بمنظور النقاد العرب المحدثين
55	الفصل الثاني (تطبيقي): السياق في التراث العربي
56	- السياق عند الأصوليين
67	- السياق بين اللغويين والنحاة
76	- السياق عند البلاغيين
86	- السياق والنقد الأدبي
106	خاتمة
110	قائمة المصادر والمراجع
115	الفهرس